أيام فى المنفى

قصص قصيرة

كمال رُحِّيم

المــؤلـــف :كمال رُحَيم
الكتـــاب :أيام فى المنفى
النـاشـــر :نادى القصة
الطبعة الأولى :٢٠٠٥
رقـم الإيـداع :٢٩٠٨ / ٢٠٠٥

حقوق الطبع محفوظة
نـادى القصـة
٦٨ شارع قصر العينى ـ القاهرة
ت : ٧٩٤١٩٢٩

هيئة المكتب

أ. نجيب محفوظ	رئيس شرف النادى
أ. يوسف الشارونى	رئيس مجلس إدارة النادى
أ. نبيل عبد الحميد	نائب رئيس مجلس الإدارة
أ. فؤاد قنديل	سكرتير عام النادى
أ. عماد الدين عيسى	أمين صندوق النادى
أ. محمد قطب	مقرر لجنة النشر

أمى .. وأبى ..

غبتما .. فغاب معكما كل شئ جميل .

وبعد كل هذه الأعوام مازلت أهب من النوم

أحياناً وكأنى غير مصدق ..

تحملق عيناي فى الفراغ بدهشة ووجدٍ وقلبى

يقول إنه كابوس وأنكما لاتزالان على قيد الحياة ..

وتحية إلى روح شاعرنا العظيم

أحمد بك شوقى الذى يقول :

ولاينبيك عن خُلقِ الليالى كمن فقد الأحبة والصِّحابا

فمن يغتر بالدنيا فإنى لبثت بها فأبليتُ الثيابا

ويقول سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه :

(فقد الأحبة غُرْبَةٌ)

فــى يــوم بعيــد

سَقطتُ من الباب الخلفى للحافلة وتبعثرتَ أشيائي ..

كنت راجعاً من المدرسة والدنيا زحام ، فدفعتنى يدٌ بلاقصد وأنا أهمُ بالنزول . انكفأت على وجهي وطحت على أول درجة لسلم الحافلة فالثانية ، وأخذتنى الأقدام بعدها إلى الأرض .

لم تسلم الحقيبة هى الأخرى من الأذى ، ديست وانفتحت عن آخرها وراح كل شئ هنا وهناك . الأقلام . الممحاة . المبرأة . كراسة أو ربما كراستان . ووجبة الأفطار التى لفتها لي أمي فى خرقة دمور ، فلم آكل شيئاً اليوم . لم تهفُ نفسى لا للحلاوة الطحينية ولا للبيضة المسلوقة ولا لمستُ رغيف الخبز . زهدت الأكل كله ، حتى وجبة الطعام التى أخذتها معى بالأمس رجعتُ بها كما هى .

لايحدث هذا الأمر عادة ، فغالبا ما يكون الزحام قليلا أو أجد من يقدم لى العون . يدٌ رخيةٌ تلتف حول يدى وتهبط بى سلم الحافلة رويداً

رويداً وعلى قدر خطوتى ، أو أشعر بمن يربت على كتفى ويدفعنى إلى الأمام دفعاً رقيقاً ، أو أسمع كلمة تشجيع ، ولم أكن أعدم من أصحاب القلوب الرحيمة وألقى من يحملنى منهم أنا وحقيبتى حتى يصل بنا إلى الأرض سالمين.

إلا يوم السوق ..

كان هذا اليوم يوما وبالا على أمثالى وطالما عملت له ألف حساب ، فقد كنت نحيلا ضامراً وأشبه بعقلة الإصبع قياسا على ركاب الحافلة . صبيةٍ كبار نبت الشعر فى ذقونهم ، يحملون لفائف معقودة بدوبارة أو زيق من القماش ولايكفون عن الضرب بالكوع أو الكتف للظفر بموضع قدم فى الحافلة . ورجال طوال عراض وجوههم عركت الحياة وامتلأت بالأخاديد حتى أنك تحسبهم أهل حكمة ومن العقلاء ، ولكن الويل لنا لو كان واحد منا فى طريقهم على سلم الحافلة . ونسوة غلاظ يحملن على رؤوسهن طسوت أو أقفاص من الجريد ، ولايسلم الأمر من آدمى يحمل بين يديه عنزة صغيرة ويصعد بها عنوة بين الناس ، وقفف ومقاطف وسلالى تدفعها الأيدى كى تمرق بين شبابيك الباص ، ناهيك عن المحصل الذى كنا نشتمّ رائحة بدلته الميرى من قبل حتى أن نراه وهو - ما شاء الله - لايمل منا أو يكل والجميع لديه ملاحقون.

هؤلاء كانوا ركاب الحافلة ، وأنا وابن عمي الأكبر منى قليلا ، علينا

أن نركب معهم كل يوم أربعاء لنذهب إلي المدرسة الأولية المقامة على أطراف بلدة بينها وبين بلدتنا شوطٌ غير بعيد . مجرد خمسة كيلو مترات ، إلا أنها كانت بالنسبة لنا سفراً وهماً كبيراً.

كان حرياً بى أن أعرف قدر نفسى وألا أزاحم على الباب ، غير أنى فعلتها فى هذا اليوم بالذات . اندفعت قدماي رغما عنى إلى الأمام ، وفعلتُ مثلما يفعل الناس . كنت مكروباً . مخنوقاً . روحى فى أنفى وأود الانعتاق من هذه الحافلة ، والعدو بقدر ما تتسع قدماى . وددت لو آكل الشارع بقدميَّ . أن أطير وأمرق كالريح من باب الدار ، وأخلص قلبى من الهم الذى يعيد فيه ويزيد.

فعلتها وهويت إلى الأرض ..

وعندها أصابنى دوار خفيف . بدت لى الدنيا ـ للحظة ـ وكأنها غير الدنيا التى أراها وأنا واقف على قدمي . كانت ضبابية ولكن ليس باللون الغائم الذى نعرفه إنما بلون قريب من لون السماء ساعة الأفول ، لون مشرب بحمرة قانية تتدفق فيه ذرات وشرارات هائمة فى كل إتجاه . وخُيلَ إلىَّ أن كل الأبدان التى على مرمى بصرى أخذت قوالب أخرى وبأحجام غير المعتاد . والحافلة ذاتها لم تكن على هيئتها ، لاحت أمامى كشئ كبير يرتعش فى وقفته وله فحيح . ورغم أن إدراكى كان منقوصاً إلى حد كبير ، فإن شيئاً فيَّ ظل منتبهاً ويحذرنى من هذه

الحافلة ، حتى أنى تقلقلت من مكاني عدة بوصات مخافة أن تدهمنى إذا تقهقرت إلى الوراء.

هى لحظةُ التى غامت فيها عيناي..

لحظة أفقت منها على الحافلة التى كانت لاتزال واقفة وتسد الدنيا أمام عينيَّ . لم أكن فى وضع يسمح لى برؤيتها إلا من أسفل فبدت لي مظلمة . خربة . وكتل من السواد والطين الجاف تتراكم حول فتحاتها وأشياءٌ متخثرة وأسلاك تتدلى منها لايحكمها أى ضابط أو اتساق . وكانت المرة الأولى التى ألحظ فيها أن عجلاتها الخلفية مزدوجة وليست مفردة كالتى فى الأمام ، وعندما همت بالتحرك إنطلق دوي مكتوم من مؤخرتها ودخان كثيف له دفقة حارة ولون أشد غماقة من لون الرماد. فعمتنى رائحته وزمت صدرى ولم أكف عن دفعه عن وجهى بضربات من يدى ، فقد كان طلب الهواء النقي ساعتها أعز شئ فى الحياة.

لم يطل بى المقام على هذا الحال ، لقيت من يأخذ بيدى ويلملم لى أشيائى ومشينا أنا وابن العم صوب الدار.

اقترب منى مزيحاً بطرف إصبعه نتفة من الطين علقت ببنطالى ، ثم سألنى عما سوف أقوله لأمى وأبى عن الكدمة التى بركبتى ، والحقيبة التى تفسخ جدارها الأبلكاش ولم تعد تصلح لشئ.

لم أكن فى حال يسمح لى بالكلام فسكت ، وبدون أن يشعر هو

أحببتُ أن أجربَ قدميَّ لو أسرعت فى المشى إلا أنها خذلتنى ، فالالتواء الذى أصاب كاحلى كان يقعدنى بالفعل عن الحركة ، ولاأمشي إلا بالكاد.

وعاد ابن العم إلى الكلام ..

سألنى عن سبب اندفاعى على الباب ومزاحمة الكبار ، وعندما لم يحظ منى بأى انتباه بدا وكأنه يكلم نفسه ويقول : أنه لايفعلها أبداً ! يحتاط لنفسه خصوصاً فى يوم كيوم السوق ! يكون آخر الصاعدين أو الهابطين من الباص !

والتفتَ نحوى ليسألنى ثانية بصوته الرفيع ، عن الذى سوف أخبر به أبواي عندما أعود.

لم أجبْ ..

اتسعت عيناه دهشةً لحالى ، ولعله اتهمنى بثقل الظل . وهما خطوتان وبدأ يذكرنى بالمرأة السمينة التى كانت تقعي معنا فى آخر صفوف الحافلة ، وأنفلت إصبع الجريد الذى يحكم باب القفص الذى كان فى حجرها فقفزت منه الأرنبتان بين الناس ، وأتبع حكيِّه بضحكة لم استسغها ، غير أنى لم أظهر له شيئاً وبقيتُ ساكتا ملولا منه ومن قدميَّ المصابتين . وعندما رأينا ثلةً من الأولاد تلعب فى أول الشارع المفضي إلى بيتنا ، بدت الفرحة على وجهه وشدنى من يدى كى ننضم

إليها فسحبت يدي منه بغلظة وعيناى متأففتان .

أظنه أدرك ساعتها ..

إذ اكتسته مسحة جد واقترب منى حانيا وعيناه تقولان لى ألا أخاف، ثم ربت عليّ متكلماً عن أخيه الذى ظل محموماً إسبوعا بحاله وغادره المرض الآن ، إلا أن قلبى لم يأنس لما قال .

وعندما لاحت الدار أمامنا شاهدنا أبى واقفاً بالباب ، مستنداً إلى عصاه وهيئته لاتريح ، وانشغل عنى ابن العم بغربان سود تتشاجر على ذؤابات النخيل القريبة من الدار ، مال على الحصى الذى يملأ الأرض يقذفها به ويدبدب بقدميه من النشوة وصياحه يمتد لمسافات.

ومشيت أنا صوب أبى ، الذى ظل على حاله ساكنا ساكتا لاحراك فيه . هممتُ أن أتكلم معهُ إلا أنه شغلنى عنه ، انحنى حتى الأرض وأحكم لى عقدة رباط الحذاء ورفع فردتى الجورب المتهدلتين ثم قبلني فى مفرق شعرى وهو يحنو بيديه على كتفيّ، ولم يبق شئ آخر يفعله فأمسك ووقف حيالى صامتا مرتبكا متحاشيا النظر فى عينيّ.

وقفت حائراً ..

فأبي لايفعل هذه الأشياء أبداً أو انتبه مرة إلى هندامي ، فكل أمورى كانت فى يد أمي وقليلاً ما كان يحدث بيننا وصال.

إزددت اقتراباً منه ولبثت برهة أحدق فى وجهه وعلى الأخص شفتيه،

وكاد هو الآخر أن يقول شيئاً غير أنه لم يفعل . جذب يده من يدى فجأة ومشى بعيداً واجما يتكيء علي عصاه ، وأنا أتابعه من الوراء . كان الشال الذى يتلفع به متهدلا ، ولم تكن على مشيته المهابة التى يعرفها كل البيت ونعمل لها ألف حساب ، والعصا تتأرجح منه قليلا وتثور حول قاعدتها ذراتٌ كثيرة من الغبار . لم يكن أبي الذى أعرفه ، كان شارداً فى شيء كبير ولايقبض على عصاه باتزان.

ودلفت أخيراً من الباب ..

كانت خالتى فى صحن الدار وحولها نسوة كثيرات . لم أنتبه إلى أمي رغم أنها كانت تقعي بينهن مرتدية جلباباً أسود ورأسها معصوبة بغلالة سوداء ، فلم أكن معتاداً عليها وهى فى هذا السواد . وعندما رفعت رأسها إليّ بان لى وجهها وكأنه مشلولٌ ، وعيناها حمراوين وتنضحان بقهر لاتعرفه إلا الأمهات.

أومأت لى أن أتقدم ، غير أنى لم أفعل.

قالت لى بعد أن كبرت أنى لبثت شهرا بطوله راقداً فى الفراش ، أبكى وأنادى على أخى الميت أن يعود ، ولم أكف وأنا نائم عن الكلام مع نفسي بصوت مسموع.

***

مايو ٢٠٠٥

لقمـــة العيش

لم يكن بيتنا شيءٌ يذكر ..

مجرد غرفتين من الطوب اللبن مسقوفتين بالجريد ، ووسعاية يحوطها سياج من الغاب المضفور ، بأحد أركانها فرن لم يكتمل بناؤه ورحاية عاطلة عن العمل وأخنان خوت من سكانها ، بعدما أغارت علينا أثناء الليل ثلةٌ من الكلاب أو ربما من الثعالب وفروا بالأرانب إلى جحورهم .

غافلون الملاعين ..

وحتى القفص الجريد المغلق على الفراريج مزقوه بأنيابهم ، ولم يعد لنا من حطام الدنيا بعدها سوى عنزتين تلهوان طول النهار فى الخلاء ، وعندما يحل الليل تسوقهما أمى أمامها ليبيتا معنا .

وكانت تترامى من خلفنا وإلى ما لانهاية مساحات من الأرض البور، ونباتات صبار متناثرة هنا وهناك . وكنا كلنا ـ حتى العنزتين ـ أغرابا أتينا من جوف الصعيد ، بعدما عزت علينا لقمة العيش هناك .

* * *

لم يكن فى وسعنا - بالطبع - أو حتى ورد على خاطر أبى الاستعانة ببنائين لتشييد البيت ، وإنما قام هو بكل شئ ومن ورائه أمى بجردل الماء وقوالب الطوب.

وكنت أنا وقتها ابن أشهر وملفوفا على مقربة منهما فى خرقة من الدمور ، وأسعل كلما هبت على وجهى ذرات التراب المتطايرة من معول أبى أو رذاذ الماء والذى غالباً ما يكون مغموساً فى الطين.

وكانت تصدر عن أبى هو الآخر سعلات متقطعة من علة بالصدر أصابته وهو صغير ، فيرتخى كفه على المعول الذى فى يده ويعلو برأسه قليلا تاركاً رئتيه تعملان بأقصى طاقتهما لاستدراج أكبر قدر من الشهيق.

وتشعر به أمى ..

تشير له بأن يترك ما فى يده وينزل من أعلى الجدار .

لايطاوعها متعللا بضيق الوقت ويشيح لها بيده فى الهواء فتبتعد عنه ، إلا أنه عندما تعلو وجهه الصفرة أو يزداد نهجانه كانت تصعد إليه مسرعة وتأخذه من يده.

يذعن لها ..

تكسره وعكة الصدر فيترك نفسه لها كالولد الصغير ، لتنزل به من على الدرج الطينى ، وعلى أقرب كومة من عيدان التيل الجافة تريح له

بدنه واضعة شيئا مرتفعا أسفل رأسه لعل أنفاسه تهدأ أو لربما يدخل فى غفوة وينام . وكان هذا الذى يحدث . يمكث برهة قليلة محدقا فى الفراغ ثم ما يلبث أن يغمض عينيه وصدره يعلو ويهبط ، ولم تكن الحشرجة تفارقه إلا بعد وقت طويل .

واستوطنا أخيراً هذا المكان الذى قتلته شحة الماء ..

وعلى امتداد البصر لم أكن أرى إلا تشققات فى الأرض تخرج منها السحالي والهوام ، ويقع بأكملها من السيقان الجافة والأشواك طالما خوفتنى أمي من الأقتراب منها . أما الأرض الخصبة فكانت على الجانب الآخر ، يفصلنا عنها طريق من الأسفلت تجوب فيه المركبات ، فبعده وبمرمى حجر تقريبا كانت أحواض الزرع تمتد إلى مسافات بعيدة ومن بعدها تبدأ أول بقعة فى العمار . بلدة تبدو كبيرة قياسا على قرانا التى تملأ سفوح الجبال بالجنوب ، وكلها بيوت من طابق واحد يسكنها الفلاحون تتوسطها بنايات كبيرة ومدهونة بالطلاء مخصصة للأعيان.

* * *

لم تكن لأبى حرفة غير صنع الحبال ..

يمضى النهار بطوله وهو قابع فى الوسعاية التى أمام الباب . ساقه اليمنى ممدودة أمامه وقد انحسر عنها السروال ، والساق الأخرى مثنية أسفل منه لحفظ توازنه ، والعنزتان تتسكعان أمامه . تلقمان ورقة جافة

أو عود حطب ميت ، وقد يركبهما الشيطان فجأة وتتأهبان لنطاح بعضهما بلا سبب وجيه.

اقترب منه زاحفاً على أربع وأجلس قبالته فلا يلتفت إليّ . يستفزنى الشعر الكثيف الذى يكسو ساقه المفرودة ، فتمتد يدى متحسساً إياه . ينتبه إليّ ويخشى أن يؤذينى الحبل لو أفلت من يده ، فيهشنى بكفه كى أبتعد .. وفى انشغاله بي تخطيء يداه فى توليف عقد الحبل، فيرفع ساقه ويخبط عليها متأففا منى . تبدو لى ساعتها عجفاءً قائمةً لاسمانة لها أو حتى فيها فتفوتة دهن ، تكون أقرب إلى ذيل حصان أو ساق لخيال مآته من ساق لبشر.

وأهرب أنا مبتعداً عنه ، وعندما أشعر بأننى فى الأمان أستدير نحوه.

أمكث فى مكانى متتبعا حركة إصبع قدمه الكبير القابض على طرف الحبل من ناحية ، وأصابع يده المسكة بخيوط التيل من الناحية الأخرى وتولف بينها بحركات سريعة ومتداخلة . ولم تكن عيناي تغفل أبداً عن رأسه ، الذى يروح ويجيء إلى الأمام مع كل حركة من حركات يده.

وعندما كبرت أصبح يأمن لاقترابى ، ولم أكف أنا يوماً عن محاكاته.

أقوم وأبحث عن الخيوط التى تلفت فى يده وتناثرت فى الجوار ،

وأتسحب بحرص على أمشاط قدمى نحو الجدار ، ثم ارتخى بظهري عليه ماداً قدمي إلى الأمام ومثنيا الأخرى وأفعل مثلما يفعل . يوقف أبي حركة يده ويطل علىّ ، فيعترينى الارتباك وأهمّ بالنهوض . يشير لى أن أبقى دون أن تعلو وجهه إبتسامة أو تعبير عن الرضا بما أفعل .

يظل وجهه ساكنا ، عيناه فقط هما اللتان كانتا ترمقانى بمسحة حنو حزينة .

وعندما يفرغ كان ينهض من جلسته ويمشي على مهل ، ويداه من خلفه تسند ظهره المتعب من طول القعود ، يأتى بجردل ماء ويرش الحبال حتى تحتفظ بطراوتها . يظل على هذا برهة طويلة ، ثم يتمطأ ويتنقل بخطاه فى الخلاء الفسيح . شفتاه مضمومتان فى صمت عميق ووجهه متجهم وكئيب.

لم يكن يعرف الضحك ..

قهرته الدنيا وهده الترحال ، وبضاعته بار سوقها . الحبل أو الحبلان اللذان يكد فيهما طول النهار ، تأخدهما أمى على مشنة على رأسها وتدور بها فى البلدة . ولا أحد يشترى..

* * *

كنت أغافل أمى وأسير خلفها ..

تقطع الطريق الأسفلت وأنا فى إثرها ، وتوغل بقدميها بين أحواض

الزرع فأزيد أنا المسافة التى تفصل بيننا كى لاتشعر بى أو تنتبه إلى خشخشة أوراق الشجر الجافة التى تدوسها أقدامى.

ويحدثها قلبها فجأة بأنى وراءها فتلتفت وترانى ..

يبدو الحنق على وجهها وهى تأمرنى بالرجوع ، لا أبالى وأبدأ فى التلكؤ والمناورة . تقتلع عوداً من الأرض وتهددنى به ، وعندما لاتبدو عليّ الاستجابة تقذف بالعود فى وجهي أو تميل على حفنة تراب وترميها تجاهي . أدرك أنهُ لاحيلة لى إزاء تصميمها وأعدو من أمامها مسرعاً ، وعندما أصل إلى الطريق الأسفلت أسمعها وهى تصيح من ورائى لأهدى من خطواتى وأن أصحو لنفسى كى لاتدهمنى المركبات.

غالبا ما يكون الطريق خالياً ، فأعبره كالريح وأقف فى الناحية الأخرى أتابعها وهى تمشى على حواف السكك قاصدة البلدة . هيكلها عريضا وخطاها فسيحة ورزينة كخطي الجمال ، ولم تكن يداها تسندان المشنة وإنما تروحان وتجيئان بحركة وئيدة والمشنة ثابتة على رأسها لاتتقلقل . وإذا كنا فى شتاء أمشير ، كانت طرحتها السوداء تتطاير على رأسها بفعل الريح الشديدة . لاتنشغل بها ، وإنما بجلبابها الذى تدفعه الريح بقوة بين ساقيها ويعوق حركتها . تظل تشد الجلباب إلى الأمام وهو يعاند ويرتد إليها ، إلى أن تغيب عن بصرى.

تذهب وتعود كل يوم ، ولا أحد يقبل على بضاعتها ..

وإذا ألحت يقولون لها : الخيط البلاستك أمتن وأرخص ، ناهيك عن الصعاليك الذين كانوا يلمزونها بكلمة من هنا وكلمة من هناك . ومن يشترى فمن باب العطف والإحسان ، والدفع ـ بالطبع ـ على المهل ، وكل براحته . بيد أنه لم تكن تعدمها الحيلة ، كانت تدخل بيوت الأعيان وتكنس المنادر والدواوير أو تشعل الأفران والكوانين ، وتقوم بكل ما تعف عنه النسوة الكسلى .. وتأتى لنا فى آخر اليوم بأشياء نتقوت بها. خبز فلاحى . جبن قريش . أو حلة طبيخ بائت بداخله قطع من الدهن والشغت . وحبات طماطم وثمار خيار أو فلفل أخضر اقتلعتها من على الشطوط .

والغريب أن العنزتين كانتا تعرفان ـ مثلنا ـ أن أمى هى التى تعول البيت، ومن بعد العصر ـ وهو أوان رجوعها ـ كانتا لاتبرحان بقعة مرتفعة بزاوية البيت تهل عليها من بعيد . تتمددان على الأرض بلاحراك أو تعبثان بحافريهما فى الأرض بملل شديد ، وعندما تتنسمان رائحة أمى مع الهواء الآتى من البلدة كانتا تهرعان إليها قفزاً وكأنهما داخلتان فى سباق . تدوران حولها وتعرقلان سيرها والعنزة السوداء ـ خاصة ـ كانت تتجاسر عليها وتنطحها فى خاصرتها بوحشة واشتياق ، إلى أن تذعن لهما أمى وتهبط على الأرض بالمشنة وترمى لهما ما يخصهما ، حزمة برسيم ، كيزان ذرة ، أو كسرة خبز طالها العفن.

* * *

ساءت صحة أبى أول هذا الشتاء ..

ضربه الهواء البارد فحرك المرض القديم ، وبات أغلب اليوم صدره مزموم وتفاجئة السعلات الحادة التى تعقبها أحيانا بصقة مخضبة بالدماء.

كانت أمى تضع عدة أحفان من الردة الدافئة فى خرقة وتزم عليها ثم تضعها على صدره عند النوم ، وتأتى له أحيانا بأدوية للسعال . زجاجات مسدودة بقصاصة ورق أو زيق من القماش ، وثلثها أو نصفها مملوء تأخذها من البيوت التى تدخلها.

تسحب الزجاجة من المشنة التى على رأسها وتسلمها له ، يمرر لسانه على فوهة الزجاجة ثم يرفع عينيه المحمومتين إليها ويقول : أنها أكثر مرارة من الزجاجة التى أتت بها فى المرة السابقة .

تقول له : أنه كلما كان الدواء مراً كان أسرع فى الشفاء .

يهز رأسه ، ويضع الزجاجة فى كيس صغير من القماش إلى جوار أخواتها .

وعندما دخلنا فى شهر طوبة حرمت عليه الخروج من الباب ..

لازم الفراش طيلة اليوم ، إلا ساعات الصباح التى كنا نقضيها معا فى بحراية الباب ، متدثرين بأشعة الشمس من موجات الرطوبة التى تعث فى المكان ، خاصة الجدار البحرى الذى ينتصب فيه الزير.

* * *

رحم الله أمى ، فقد كانت عمود البيت ..

كل شئ كان معقوداً فى رقبتها . الأكل والشرب والكنس بل والأمر والنهى أيضاً ، وأنا وأبى قابعان فى البيت لاحول لنا ولاقوة.

كانت تنهض مبكرة دائما وأول شئ تفعله لنا هو كنس بحراية الباب، ثم تضع فرشة أبى عليها.

حصيرة أنهكتها عوامل التعرية ، وشلتة ذبل حشوها من طول الاستخدام . وعندما شكا لها أبى من يديه اللتين تؤلمانه كلما وضع رأسه عليها ونام ، أتت له من أحد البيوت بمسند خرج الحشو من مزق بجانبه وحرام ليغطى به ساقيه .

عادة ما تكون هذه المستلزمات ملقاة بأى ركن فى الوسعاية أو فوق الأخنان إلا الحرام ، فهو من من أشيائنا الثمينة التى لايجب أن تبيت فى العراء . تطبقه أمى أربع طبقات ، وتضعه بعناية فى صحن الدار على عرقي خشب صغيرين شدا إلى بعضهما بالحبال .

تتأكد أمى من أن هذه الأشياء أخذت حاجتها من الشمس والهواء ، ثم تحملها على كتفها وأنا واقف فى الانتظار . تلقى بها دفعة واحدة فى البحراية فيثور الغبار وتطالني رائحته والتى غالبا ما يفوح منها عطن خفيف .

كنتُ معلولا بالصدر مثل أبى ، فينتابنى ضيق النفس وأبدأ فى

السعال . تدفعنى بعيداً عن مصدر الرائحة ، وتسألنى : إن كنت بحاجة إلى ماء . أهز رأسى رافضا .. لاتكترث بما أقول وتسرع إليّ بكوز من الماء ، ثم تأتى بزجاجة دواء وتجبرنى على شرب جرعة من فوهتها ، وكلما تمنعت تلكمنى فى ظهرى لأستجيب ، وأسمع بعدها كلمات التأنيب ملوحة بإصبع السبابة فى وجهى كى أعود إلى الفراش .

لم أكن أفعل . أظل واقفا على مسافة منها وهى ترمقنى بضجر.

وشيئاً فشيئاً أقترب ، وأنحنى مقدماً العون . أستكمل فرد الحصيرة أو أجثم على المسند مزحزحا إياه نحو الجدار إلى أن ينتابنى اللهاث فترفعنى بحنق من طوق الجلباب ، غير أنها أول ما تسمع حمحمة أبى فى الداخل كانت تنشغل عنى .

* * *

ويأتى أبى ..

محنيا ضئيلا يخب فى سروال طويل من البفتة ، يعلوه شرز كاكى من مخلفات الجيش .

يتوقف أول ما يرانى . يشير لى بالعصا التى يتكيء عليها كى أتقدم نحوه ، ويبدأ فى الحديث معى فى أشياءً تافهةً وأمى إلى جواره متأففة والضجر يملأ وجهها . معذورة أمى ، تكون متعجلة على الخروج وتود وضعه على الفرشة بأى طريق كى تنطلق إلى لقمة عيشها .

وأطير أنا وآتى بمتعلقاتى . كوز مخروم . زجاجات فارغة . حفنة أزرار . حصى بأحجام مختلفة . ومسخوط كنت قد عثرت عليه ملقيا فى العراء . ويكون أبى قد جلس مسترخيا بظهره إلى المسند وقدميه ممدودتين أمامه . أقبل عليه حاملا أشيائى فى حجرى ، وأقعى قبالته على طرف الفرشة بادئا فى اللعب .

* * *

ينشط أبى دائما فى أول الصباح ، ولا يتوقف أبداً عن الكلام ..

يلعن الغربة وأيامها ، ويحكى لى عن بلدتنا البعيدة التى تركها وأنا ما أزال محمولا فى بطن أمى . بلدة فى حضن الجبل دورها أشبه بالجحور ، تعث فيها الرطوبة والعتامة ورجالها سمُر نحيلو السيقان والسواعد ويتململون من ندرة الزاد .

يقول : أنه مضت عليه اثنتا عشرة سنة وهو بعيداً عنهم .. كلب شارد لايعرف من عاش من أهله ومن مات .. وباليته حتى يملك ثمن تذكرة السفر ، لكان رجع ولو سف التراب هناك.

ويسألنى فجأة عن الرئيس جمال عبدالناصر.

أقول : أنى لا أعرفه .

يمد يده إلى جيب السروال ويخرج محفظته الخاوية إلا من صورة الرئيس ، صورة في حجم الكف اهترأت من القدم وكثرة الفرد والتطبيق .

يحملق فيها صامتا ..

ألقى عليها أنا الآخر نظرة خاطفة ، ثم أعود إلى اللعب.

ويأتينى صوته وهو يتكلم مع الرئيس ..

يلقي عليه السلام ، يعاتبه لأنه نساه ولم يعطه فدانين من الاصلاح الزراعى مثل أولاد عمومته .

يقول : أبعاديه البرنس (يوسف كمال) كانت كبيرة . يرمح فيها الخيال يوما بطوله . كانت تسعنى أنا الآخر . لعنة الله يا أبو خالد على الملاعين الذين أحالوا بيني وبينك . حرمونى من حقى ودخت بعدها السبع دوخات.

ويتوقف فجأة ..

يسمع خشخشة بين ذوائب الجريد المتدلية من سقف البيت ، فيرهف السمع وترتخي الصورة بين أصابعة . ويباغتنى بوقوفة فجأة وهو يقول بصوت جزع : إنه فأر ويجب أن نحتاط منه ، وينغزني بعصاه فى كتفي كى نهب معا لمطاردة الفأر . أشعر بالحنق ، فأبى له فى كل يوم حكاية والمسألة تأتى دائما على رأسى ولا أهنأ باللعب .

يشير إلى قالب طوب كى آتى له به . أفعل . يقف عليه ويرفع عصاه ، ويدفس مقدمتها بين أعواد الجريد ويحركها يمينا ويساراً . وعندها تبدو صفحة وجهه جادة وفى أقصى درجات الترقب ، وأنا واقف

خلفه أتلوى من الملل فكل أفعال أبى دائما فاشلة.

أقول له : كفى يا أبى ، والفأر ليس عبيطا حتى ينتظرك طول هذا الوقت.

يقول : أنتم هكذا أيها الصغار لاصبر لكم .

أتركه وأرجع إلى الوراء ، أعتلي كومة من الحطب الجاف لأتمكن من رؤية السقف . أبى - والله - محقا . وباليته كان فأراً واحداً وإنما هم بالعشرات . الذى يلهو والذى يتزاوج ، والذين ينهشون أحقاف الجريد بأنيابهم وحتما سوف يوقعون السقف على رؤوسنا . والمشكلة أن المنطقة التى يبحث فيها أبى بعصاه كانت خالية منهم ، تركها له الأنذال كى يلهو فيها على راحته .

وتأتى أمى لتوقف هذا العبث ، وشيئا فشيئا يستكين لها فتعود به إلى الفرشة .

لانجد صورة الرئيس ، يبدو أن دفقة ريح غافلتنا وأخذتها معها . تقول أمى : أنها سوف تأتى له بعشرة مثلها.

ينظر إليها براحة ، فتردف : أنها تملأ الجرائد القديمة التى فى بيوت الأعيان وهم يرمونها أو يتركونها لها لتنظف بها زجاج النوافذ . يتعكر مزاجة . تكسو وجهه الجهامة وتسرح عيناه فى بقعة قصية يملؤها نبات الصبار.

وشيئاً فشيئاً تهمد حركته ويكف عنى ..

وأبدأ أنا فى اللعب ثانية ، لا أنتبه إليه إلا كلما رفع عصاه وخبطها على الأرض بصوت مدوي ، مهدداً أى كلب أو قطة تفكر فى الاقتراب منه.

* * *

يسأل أمى عن الصورة فى كل مرة ترجع فيها من البلدة .

تطرق صامتة ، وفى مرة ضجرت من كثرة إلحاحة فقالت له : ليس بالجرائد سوى صورة الرئيس الجديد . هل آتى لك بواحدة منها ؟

سكت فى أول الأمر ، ثم اختلق بعدها مشاجرة معها وتفوه بكلام أكثره غير مفهوم .

تركته وانصرفت . كانت هذه هى عادتها معه . لاتطيل الكلام معه وإذا كان مزاجه ليس على ما يرام ، تبتعد عنه ولا تأتى له الا إذا ألح فى النداء عليها أو كلمها بكلام مفهوم . تقول : أن بها ما يكفيها فهى التى توكُل وتُشرب وتعرى وجهها طلبا للرزق ، ولم تعد لها طاقة للمحايلة والمسامرة .

وأبقى أنا معه ..

برهة فبرهة وأشعر به وهو يميل على مداسه.

أفهم أنه يود مطاردة شئ ، وأحتاط لنفسى فهو لايحسن التصويب.

أتابع مسار عينيه .

تلوح أمامه جرادة نطاطة تقف على أحد أعواد الغاب ، ظلت عيناه عليها حتى طارت من مكانها وأخذت تحوم حول العنزة السوداء . خاف أبي أن تنشب الجرادة ساقها المنشارية فى أذن العنزة أو رقبتها ، فهب مرة واحدة وقذفها بالمداس . كانت اللئيمة قد طارت إلى مكان آخر ، وأتى المداس فى بطن العنزة وبدأت المسكينة فى التوجع والمأمأة.

لايعبأ بما حدث ، ويستدير نحوى . يحكى لى وقت أن كان صغيرا فى الصعيد ويخرج مع الأولاد واضعين نعالهم تحت آباطهم ، وأول ما يلمحوا أسراب الجراد يصفقون بها كى لاتحط على الأرض ، وكان الكبار يطرقون بالعصي على الصفائح .

الكلام معاد . سمعته عشرات المرات . أود أن أعود إلى اللعب ، لكنى لا أفعل ، تروح عيناي على يده . الأصابع قائمة وجافة مثل عيدان الحطب التى امتص دود الأرض كل ما هو رطب فيها ، والعروق سارحة على ظهر يده .. يابسة وخضارها تكسوه غماقة داكنة .

ويدخل فى غفوة تعقبها دورات شخير مؤذية ..

أنادى على أمي كى تأتى وتأخذه إلى الداخل ..

لاتسمع . وإن سمعت فهى لاترد.

أقوم وأترك له المكان .

* * *

سأل أمى هذا الصباح أن تبقي معه ..

قـالت له : عـندك الدواء فى الكيس وبجـوارك قلة الماء ، وأنا لن أتأخر .

فأطرق ، ولا أدرى كيف لم تنتبه إلى الصفرة التى تكسو وجهه . وبقى هو زاهداً فى الكلام على غير عادته . خمنت أنه مشغول بشئ وكنت بين الحين والحين التفت إليه فأجده يتململ فى جلسته ، سألته إن كان يريد شيئا فلم ألق جوابا .

بقينا هكذا إلى أن باغتنى بسعلات حاده ، وشئ كالريالة المخضبة بالدماء تسيل من فمه .

انكفأت عليه فأبعدنى عن صدره بدفعات واهنة من يده .

كان وجهه فى لون الرماد وسقطت التلفيعة من حول رقبته فبدت عظمتا الترقوة من قبة الجلباب ، وأحسست للحظة أنه يريد قول شئ إلا أنه لم يفعل . تحول عنى بوجهه وهو يلهث ، ثم تزحزح بمؤخرته نحو المسند ، أرخى رأسه عليه وأسبل عينيه .

سألته : إن كان يريد أن يشرب أو أن آتى له بزجاجة الدواء . لم يجب . دنوت برأسي من وجهه وأعدت السؤال مرة ثانية فأشار لى أن أسكت الآن ، وكان النفس الخارج من فمه يفوح برائحة بشئ حامض . ولم أكد أعود إلى مكانى حتى هب برأسه فجأة من على المسند ،

ودخل فى نوبة أحد من السابقة . السعال فيها صوته غريبا عن كل مرة، وبدا وكأنما يحاول دفع شئ عالق بحنجرته .

أقعيت أمامه بلا حراك . كنت مرتبكا ولا أعرف ما الذى افعله وانتابنى الوجل وأنا أنظر إلى ساقه التى تعرت منه وتنتفض من شدة السعال .

وعندما هدأ - أو هكذا ظننت - سألنى عن أمى ودفعنى فى ركبتى كى أسرع وأناديها . اندهشت من سؤاله ، وقلت له : أنها ليست بالدار فتغير وجهه وغمغم بكلام لم أتبينه ، ودفعنى ثانية دفعات متلاحقة . لم أفهم ما يريد . حسبت أنه غاضب منى ويريدنى أن أبتعد ، فوضعت متعلقاتى فى حجرى وانتقلت بها إلى مكان غير بعيد ، وكنت أرنو إليه ببصرى بين دورات اللعب لعله ينادينى أو أفهم ما يريد ، فأجده ساكناً إلا أنفاسه التى تلهث.

وبعدما فرغت وجدت رأسه مستلقية على حافة المسند . ألقيت عليه حصاة صغيرة مداعباً الا أنه لم يعبأ بي ، فمددت رأسى قليلا إلى الأمام لأستجلي خبره واندهشت من أبى هذا الذى له فى كل يوم شئ عجيب . ينام وعيناه مفتوحتان ! وأقول لنفسى : والله يا أبى إنك سوف تصيبنى بالجنون مثلما أنهيت على أمي ، هل هناك بشر يفعل هذا الذى تفعله : تنام وعينك مفتوحتان !

لم أعرف أنه كان ميتا إلا بعد أن أتت أمى ..

صدرت عنها آهه موجعة بعد أن مالت عليه ، وجثوت عليه أنا الآخر فدفعتني بيدها كى أبتعد ولا أحملق فى وجهه ، ولما توانيت نهرتني بوجه غاضب وأمرتني بأن أتركها الآن وأخرج إلى الخلاء .

كانت الريح شديدة فى هذا اليوم ، وتأتى من جهة الغرب حيث الأرض البور. والجو معبأ بعكارة وتراب وأعواد جافة وأشجار شوك بأكملها تدور حول نفسها عدة دورات فى الهواء ، ثم ما تلبث أن تسقط على الأرض وتجرى فى مسار الريح . وعلى مرمى البصر حيث الطريق الأسفلت كان رهطاً من المركبات السوداء يمضى خطفاً ، وفى مقدمته مركبة ترفرف عليها الأعلام من الجانبين ، وأناس كبار يجلسون فيها تبدو على وجوههم الراحة ويتسامرون .

* * *

فبراير ٢٠٠٥

فـــى أول النهـــار

الطريق المحاذى للترعة هو أول حدود البلدة ، وفى آخره جسر قديم يفضي إلى الحقول .

كل يوم يتجه الفلاحون إلى حقولهم من هذا الطريق ، يمشون على مهل كعادتهم فى هذا الزمان ، ولايكفون أبداً عن الكلام أو الوقوف أمام الدكاكين لشراء الشاى والدخان . وكنا نرى الجاموس ونسمع نعيره الممطوط الكسول ، والأغنام الصغيرة التى تمأمئ بلا إنقطاع . ويتسكع الأوز الكبير على طول الطريق وبين الحين والحين يدخل مع بعضه البعض فى شجار ، أو يرفرف بأجنحته مجرباً حظه فى الطيران . ويجرى العيال إلى الأرض الخلاء المجاورة للجسر القديم ، يعودون بعدها إلى الترعة متسللين . ينزعون هدومهم تحت أى شجرة ، وينزلون عرايا فى الماء .

بدت الدنيا غريبة فى هذا اليوم ..

الدور أكثرها مغلق ، وخلا الطريق من الناس . لم أجد فيه حتى

صريخ واحد ابن يومين . وعلى أسطح البيوت كانت النسوة والبنات الكبار صامتات ، وينظرن بشغف نحو شئ بعيد ، أما العجائز فكن يتنسمن أى خبر من فُرج الشبابيك .

* * *

الحركه كانت آتيه من هناك ، من عند الجسر القديم .

أنفار يدقون بفؤوسهم فى قلب الأرض الخلاء . كانوا عشرة أو أزيد بقليل . يلبسون فانلات بأكمام طويلة ، وسراويل مُشمَرة حتى منتصف الساق . كانوا على شاكلة واحدة ، ورؤوسهم جميعا ملفوفة بشيلان جللها التراب ووراءهم رجل بجلباب معقود على خاصرته وسروال قصير.

كان فى منتصف العمر تقريباً ، وشعر فخذيه كثيفٌ على نحو غير مألوف . وعندما كان يلتفت ناحيه اليسار ، كانت شحمة أذنه اليمنى تبدو مشقوقة نصفين ، وأسفل منها جرح قديم بطول وعرض الإبهام . لم يكن وجهه غريبا عنا . كنا نعرفه ، الأنفار هم الذين كانوا غرباء . خمنا أنهم من العاملين فى طائفة المعمار الذين يأتون من بعيد .

وعلى أول الطريق كانت تقف عربة نقل محملة بشكائر أسمنت وأدوات بناء . صندوقها الخلفى كان مفتوحاً ، وعلى طرفيه جلس رجلان بملابس الحمالين ، واحدٌ منهما كان فارغ الصبر ولايكف عن التلويح بالعصا فى وجه صبية صغار ، يودون تسلق عارضة الصندوق .

الدنيا ساعتها كانت فى أول النهار ، وغمام كثيف يملأ السماء ، وريح محملة بغبار خفيف بدأت فى الهبوب . وكنا نرى أهل البلدة وهم جالسون تحت شجر الكافور وأمام وابور الطحين ، لاحس ولاحركة وينظرون ، وقبلهم بقليل عيال كبار يكمنون فى وابور المياه وعلى حواف الجسر القديم .

أتى رجل على حمار ..

كان سميناً وشاربه كثاً يختلط فيه البياض بالسواد ، ولما نزل اندهشنا لقصر قامته ، فلم يرد فى خاطرنا أبداً أنها لاتزيد سوى قيراط أو قيراطين عن قامة الولد الكبير . أزاح العمامة قليلا إلى الوراء ووقف يتلكأ بعينيه فى المكان ، ثم اتكأ بمرفقه على ظهر الحمار يتكلم مع أحد الفلاحين . وشيئاً فشيئاً تكاثر عليه الناس ، وقفوا كلهم يتكلمون وعيونهم على ما يجرى فى الأرض الخلاء .

هرش الرجل السمين أسفل ذقنه وهو يتابع النظر لبعيد ، ثم هز رأسه للناس ومشى صوب ذى السروال . ووقف الحمار فى مكانه يقضم الحشائش النابتة على حد الطريق ، استلقى بعدها على جنبه وراح يغمر جسده فى التراب . تأفف بعض الجالسين ورماه واحدٌ منهم بحجر فى رأسه ، فهب الحمار واقفاً وترك لهم المكان.

اجتاز الرجل حافة الأرض الخلاء ، ووقف برهة يدعك عينيه ويميل

بوجهه وهو واقف عكس إتجاه الريح . طالت وقفته قليلا . بدا لنا وكأنه حائر وليس الأمر من الريح . واقترب منه الحمار . نهره عدة مرات ، ومع ذلك لم يعبأ به الحمار . وأدخل هو كلتا يديه فى فتحتى الجلباب ، ووقف برهة ثانية يسوى الصديرى والسروال ثم تنحنح بصوت عال وخطا خطوة واحدة . التفت بعدها إلى دار قريب جدرانها من الطوب الأحمر ، ولها باب حديدي لم يكن مألوفاً فى تلك الأيام .

مشى بعدها بضع خطوات والتفت مرة أخرى ناحية الدار . لم يعاود الوقوف بعدها أو الالتفات . مضي فى سيره مسرعاً وفى خط مستقيم ، حتى لحق بذى السروال ووقفا يتكلمان . وقد الحمار قريباً منهما ، ولما عاود التمرغ من جديد ، شخط فيه ذو السروال فسكت وظل فى مكانه بلا حراك .

وعلى الجانب الآخر من الترعة كانت حقول القطن تمتد كثيفة إلى الأمام ، وأناس ما زالوا يأتون منها ومن الشوارع البعيدة والحارات وأول ما يقتربون يجلسون بلا كلام .

وغابت الشمس ..

لم يعد ضوؤها يأتى إلينا إلا كلما انفرج الغمام ، وأسلمت شواشي الشجر نفسها للريح . كنا نسمع حفيفها ونراها وهى تميل معه وتدور .

* * *

أطلت بنت من الباب الحديدى للدار القريب ..

هيكلها كان صغيرا ، وملامح وجهها دقيقة لاتكاد تستبين .

تلفتت حولها ووقفت ساهمة للحظات ، بدت وكأنه أخذتها رجفة من كثرة الناس . أمسكت بأطراف الطرحة الخضراء المنسدلة على كتفها وعقدتها أسفل ذقنها مخافة الريح ، وجلست على بعد خطوتين من الباب تلعب فى التراب . تقبض عليه بكفها ثم ترفع يدها عاليا وتتركه للريح ، وعندما يفرغ كفها تملأه من جديد . استقامت واقفة بعدها ، وانثنت تحجل على ساق واحدة جيئة وذهابا أمام الدار ، وكلما زلت قدمها تميل برأسها مدارية كسوفها من الناس .

لم تمض برهة حتى رأينا إمرأه تخرج مسرعة وتشدها من قبة الجلباب، وسمعنا بعدها جلبة وصياحاً مكتوما فى داخل الدار ، أعقبه خروج رجل من الباب .

أول ما خطا خطوة ورأيناه ، بدا لنا طويلاً ووجهه شاحبا ومبللا بعرق خفيف . واسترعى جلبابه أنظارنا ، قلنا كلنا : إنه جلباب النوم . ولما رفع مرفقه بطريقة عفوية لمحنا ماسورة البندقية بارزة من بين إبطه .

سعل سعلتين تلفت على إثرهما حوله وصوب الأرض الخلاء ، ثم أحنى رأسه قليلا متقيا الغبار ومشى على مهل ونحن نحلق بأبصارنا فيه . ولما انكفأ على وجهه في البلل الذى يغطى حافة الأرض

الخلاء، أحسسنا أنه ضعيف البصر وبانت لنا ساقاه عاريتان ، وكأنهما متورمتان من الأسفل ومليئتان بالعروق ، وأول ما أمسك بنفسه ونهض التفت وراءه . كانت إمرأته وبناته الثلاث قد ظهرن على الباب . لاح الغضب في عينيه وأشاح لهن بيده ، فبدا الخوف والقلق على وجه الأم وسحبت بناتها وواربت الباب .

البنت الصغيرة هى التى جذبت كفها من يد أمها وجرت وراءه . صاح فيها عدة مرات . لم ترجع أو تبال بطرحتها التى أخذتها الريح . مال على الأرض وقبض على حفنة من التراب . حثا بها في وجهها . رمقته بنظرة واجفة واستدارت عائدة . أسندت ظهرها إلى حائط الدار رافضة الدخول ، وشد هو الجلباب المنثنى علي مؤخرته وعاود السير بتؤدة وكأنه ليس ذاهب إلى قتال .

* * *

تلاحقت زوابع الغبار وراء بعضها ، وعبقت الجو بعكارة وتراب . كنا نرى القوالح الجافة والأشواك وهى تجري أمامها بالأمتار ، وكانت الأوراق المتساقطة من الشجر لاتصل إلى الأرض أبداً . تدور حول نفسها وهى فى الهواء عدة دورات ، ثم يأخذها معه الريح . ولم يبرح واحدٌ منا مجلسه ، حبسنا كلنا الأنفاس نترقب اللحظة التى يصل فيها الرجل الطويل ويبدأ العراك .

صاح فيه الرجل السمين من بعيد أن يقصر الشر ويعود ، وتحسب الانفار . سرت بينهم همهمة خفيفة فى أول الأمر ، لملموا فؤوسهم بعدها ووقفوا ينظرون . كان القلق باديا على وجوههم ، وكنا نراهم وهم يتلفتون إلى بعضهم وإلى عربة النقل التى على أول الطريق .

تقدم الرجل السمين خطوة إلى الامام معاوداً الصراخ ، ومن شدة الانفعال تقلقلت العمامة على رأسه ، وكاد أن يتعثر فى مقطف مقلوب . وانتبه الحمار ، هب من رقدته وبدأ هو الآخر فى النهيق . كان منظرهما لافتا ، ولولا رهبة المقام لأفلتت منى ضحكة أنا ومن معي من الصبيان .

ظللنا واجمين مثلنا مثل الناس . لم تثر الجلبة إلا عندما انقض ذو السروال على فأس فى يد أحد الأنفار . عندها توقف الرجل الطويل . خطر لنا أنه عدل عن تصميمه ويود الرجوع . خابت ظنوننا لما رأيناه يكسر ماسورة البندقية ويحشوها بخرطوشين . ولم يتوان الأنفار لحظة واحدة . طاروا كلهم ، وأطلق هو العيارين في الهواء .

وقبل أن نأخذ أنفاسنا غافلنا ذو السروال . انقض بالفأس علي رأس الرجل من الوراء . ضربه مرتين . انكفأ على إثرهما في مكانه ، ثم قام برأسه . بدا منتبهاً للحظة استدار فيها نصف دورة ناحية ذي السروال ، ووقع مرة واحدة في التراب .

كانت الروح ما تزال فيه .. وتتبعناه وهو يزحف . زحف مسافة ذراع ، ومالت منه رأسه ناحية اليمين . بذل جهدا ليعيدها لكنه لم ينجح . وجهداً أخر ليعاود الزحف ، إلا أن جسده لم يطاوعه . بات واضحاً أنه لم يعد له عليه أى سلطان .

لم يدم الأمر طويلا .. إرتج الجسد مرتين وارتخى بعدها تماما . لم تعد تصدر عنه أية حركة .

وقبل أن نفيق ، إنداح الصوات من أعلى البيوت ..

وعن بعد لمحت البنت الصغيرة ، تعدو صوب أبيها المتكوم على التراب ..

* * *

مارس ٢٠٠٣

آلام صغيـــرة

وُلدتُ فى بلد بعيد ..

البيـوت أكبـر قليـلا من علب الكبـريت ، والأولاد الصغـار كلهم عـابسون . لم يضحك واحدٌ منهم فى وجهي مرة ، وساعات يشتبكون معى فى عراك ، أو يقذفونى بالحصى وقشر البطيخ والنفايات الكثيرة التى تملأ المكان .

كنت أخرج كل صباح فى ذيل أمى . نفرش حصيرة على الباب ، ونجلس أنا وهى صامتين . لم نكن نتكلم إلا لضرورة . هى ساكتة وأنا أعبث فى شحمة أذنى ، وعيناى تدوران فى كل اتجاه . وعلى امتداد البصر كنت أرى مأذنة الجامع ، ونخلات ثلاث تتفرع من جذع واحد . وتبدو الترعة أمام عينيّ واسعة وكبيرة ، وعلى شاطئيها رجال مددوا أقدامهم وراحوا فى سبات عميق .

كثيراً ما كنت أضيق بصمت أمي ، فأتحول بوجهي عنها وأبدا فى

لعبة كل يوم . أبحث بعينى عن طوابير (حرامى الحلة) المتسللة إلى بيتنا ، وأمد طرف إصبعى قاطعاً عليها الطريق قبل أن تنفذ من عقب الباب . ساعات يعلق بإصبعى واحدٌ منها . كنت أرميه على الفور فى حجر أمي . ترمقه بدهشة وهو سارح على جلبابها ، ثم تعاود التطلع إلى الأمام دون أن تنكت حجرها ، وأنا أحملق فيها باستغراب !!

تمر عليّ برهة وأنا على هذا الحال . أمسك بعدها اللعبة الوحيدة التى أملكها . مسخوط فى حجم كف اليد . أقذف به فى الهواء وأتلقفه . أضعه على ركبتي وأتكلم معه ، ومرة واحدة تتصلب يدى واهتاج عليه . وأميل على أية قشة وأفقأ بها عينه ، أو أمسك برقبته وألكمه فى رأسه. ولما يزداد بى الضجر أهب واقفاً ، وكلى تصميم على ترك أمي . تتبسم لى ساعتها وتشير لى أن أبقى فى مكانى .

لم يكن لى شاغل بعدها ، إلا التطلع إلى النساء .

نسوة كثيرات يجلسن فى دوائر أمام البيوت . يتلفتن علينا وكلام فى كلام ، ثم ينفجرن فى الضحك مرة واحدة ، وأمى تتبعهن بطرف عينها ، ووجهها شاحب لونه لايكاد يستبين . إمرأة منهن تعيش فى البيت المواجه لنا . كانت لاتكف عن التحديق فينا ، وأول ماعين أمي تغيب عنها تضع راحة يدها على فمها وتبدأ فى الوشوشة مع بناتها الكبار .

رغم صغر سنى كنت أشعر بأن النساء يعملن لأمي ألف حساب ، أما الأولاد فكانوا ملاعين ولايعرفون شيئا عن الأدب . ما أن ننشغل أنا وأمي بشيء ، حتى يغافلونا ويتبولون على جدار بيتنا ومنهم من كان يرفع جلبابه حتى أعلى بطنه ويتبرز بلاحياء !!

* * *

كنا نخرج مرة ثانية بعد الغداء . أمي على حالها وأنا ألكم فى المسخوط وما أن يفرغ الناس من صلاة العشاء ، حتى تنتفض واقفة وتشدنى من يدى إلى الداخل ، فالكلاب كانت تأتى مرة واحدة من آخر البلدة . كلاب كبيرة . الواحد منها فى حجم الحمار ، ويقودها كلب ذيله مقطوع وإذا جاء الليل لاترى منه إلا عينيه . كنت أموت فى جلدى عندما يزوم أو يتهيأ للنباح ، ويقولون أنه لو غافل أحداً وهب فى وجهه لقطع الخلف فى الحال .

أول شيء تفعله أمى ، غلق الباب بالمصراع . تمسك أذنى بعدها ، وتنبه علىّ ألا أقترب من الشباك ، وأن أنام قبل مجئ عمي .

تقول لى هذا الكلام كل ليلة ، ولم تنس ولامرة شد أذنى ، ثم تدير ظهرها وتتركنى واقفاً .

فى الحال وما أن تدخل حجرتها ، حتى أضع عينيّ على ثقب الباب. على شعاع اللمبة الجاز ، كنت أراها وهى تعبث فى صندوقها القديم .

تخرج منه ثوبا أخضر وتتأمله . ثوب أخضر كله نقوش ، لم أرها ترتديه ولا مرة . فمنذ أن وعيت على الدنيا ، وهدومها كلها سواد فى سواد . الجلباب . الطرحة . الشال . حتى المداس والمنديل لونهما أسود.

ومرات كثيرة تخرج أوراقا من قاع الصندوق ، وتدقق فيها بعينيها . كانت الدهشه تنتابنى ، وأرفع عينى من على ثقب الباب محتاراً ، فهى لاتعرف القراءة ، ولا أنا . عمي هو الوحيد فى بيتنا الذى يفك الخط .

* * *

كنت أغافل أمي فى بعض الليالى ، وأقف فى الشباك بعد أن تنام ، وأظل أتابع الكلاب بشغف وهى آتية من بعيد ، وعيناي تروح وتجئ عليها وهي تتمطئ وتهز رؤوسها وتلعب وتقفز على بعضها البعض أسفل الشباك ، فمن عادتها أن تأخذ فترة راحة بجوارنا ، بعد كل دورة تأخذها فى البلدة .

وأول ما ترتخى برؤوسها على أقدامها الأمامية وتبدأ فى أخذ غفوة، كنت أخرج الحصى من سيالتى وأقذفه عليها. لم تكن تنبح فى وجهي أو تزوم ، وكانت عينا الكلب الأزعر مفتوحتين دائماً وينظر إلىّ. كان يعرفني . دخل بيتنا مرات كثيرة مع عمي ، ويوم أن فتح بطن شيخ الجامع اختبأ عندنا إسبوعاً بأكمله .

كنت أنام بعدها وأحلم ، وأتكلم وأنا نائم بصوت يسمع . ولم

يفارقنى عمي فى أى حلم . فى كل مرة يأتينى بهيئة جديدة وأكبر بكثير مما أراه فى اليقظة ، إلا أنه لم يفلح أبداً فى الامساك بي . فهو إما أن ينحشر فى الباب وهو داخل أو أقفز أنا من الشباك ، أو تدخل علينا أمي فجأة فيكف عن المحاولة .

وفى ليلة وجدته أمامي . ليس بينى وبينه سوى مسافة ذراع . كنت مدهوشاً فى أول الحلم وأسأل نفسى من أين دخل ، ومن خوفى تشبست بأطراف اللحاف . كانت أصابعى منقبضة عليه ، وترتعش من التوتر . وقطعت النفس تماماً ، وهو ساكت والملفعة تخفى وجهه . لكنى كنت أعرفه . وأول ما نقر بعصاه على حافة السرير ، سقط منى قلبى . وظل هو واقفا فى مكانه يترصدنى بعينيه ، ويداوم النقر .

أردت أن أقوم فلم استطع ، وأحسست بعدها بأنفاسي وهي تنطلق فجأة . كانت عاليه ، وأسمعها بوضوح . ولما بكيت ردت عليّ أمي من حجرتها . قالت لى بصوت غاضب : إذهب وإغسل سروالك بنفسك ، فقد مللت من كثرة تبولك وأنت نائم .

صحوت بعدها على رزعة الباب الخارجي ، وكان الشباك مفتوحاً ، وكلبان يزومان فى وجه بعضهما أسفل منه . كنت مدووشا من النوم ولا أعرف ماذا أفعل ، فأسرعت خارجا . ولما وجدت عمي فى مواجهتى تسمرت فى مكاني ، وفتحت أمى باب حجرتها ووقفت أمامه هى الأخرى.

التفت إلينا عمي التفاتة سريعة ، ثم علق عصاه على مسمار بجانب الباب وكوم ملفعته عليه واستدار إليّ . هرش طرف شاربه وخطا نحوي خطوتين . حسبتُ أنه يتأهب لضربى ، فرجعتُ إلى الوراء . وأقبلت أمي عليّ .طبطبت على ظهرى ، وأومأت إلىّ أن أدخل . والتفت هو إليها . ضحك وضربها على مؤخرتها . استدارت إليه غاضبة . كنت لا أزال واقفاً . هبطت بعينيها إلى الأرض لما رأتنى ، وتبعته إلى حجرتها.

* * *

كنت أحسب أن عاشور النطع زوج أمى .

لم أعرف أنه ليس زوجها ، إلا فى أول يوم أذهب فيه إلى الكتاب . كنت واقفاً وقتها على عتبة الكتاب ، والفأر الواقع فى المصيدة أكثر منى إطمئناناً .

الأرضية كانت واطئه ، وبلا أى فرش . حصيرة فقط يتربع عليها الأولاد ، وسيدنا جالساً أمامهم على شلتة من القطن تكسوها فروة غنم بلون كالح . وعلى مقربة منه طست صغير من النحاس به عدداً من القلل وكلها بلون واحد ، فيما عدا واحدة كانت بلون أغمق قليلا من الباقيات ومغطاة بكوز من الصفيح . أظن أنها القلة التى كانت مخصصة لشرب سيدنا ، أما مداسات الأولاد فكانت هنا وهناك وأكثرها مقلوب على وجهه.

بقيت واقفاً بهيكلى الصغير أتململ من لوح الأردواز المعلق بدوبارة فى عنقى ، ومن الطاقية التى لم آلف ارتداؤها من قبل ، وكنت فى مجملى فارغاً وعاجزاً عن دفع قدمى بوصة واحدة والنزول إلى ساحة الكتاب .

كل الذى استطعته هو التطلع نحو سيدنا ، وشيئاً فشيئاً تركزت بؤرة عيني على وجهه .

لم يكن مثل الوجوه المألوفة أو قسماته يجمعها أى تناسق ، وإنما كان مثيراً للخوف والفضول فى آن واحد . أنفه كبير بشكل لافت ويدعوك إلى الحذر منه ، وعيناه صغيرتان وغائرتان ويصعب تقفي المسار الذى تتجه نحوه ، أما أذنه اليمنى فتبدو وكأنها أكبر قليلا من الأذن اليسرى .

ظللت أتابعه بشئ من القلق وهو يمط فى التلاوة بصوته الغليظ ، ويهرش بين الحين والحين فى رقبته التى كانت تعلو وتهبط بلاتوقف ، ثم شد بصرى فأران يلهوان معاً بين أعواد الغاب التى تظلل سقف الكتاب. كان حجمهما صغيراً وألمحهما بالكاد وهما يناوران بعضهما وتصدر عنهما خشخشة خفيفة . واندهشت من أننى وحدى الذى انتبهت إليهما ، رغم أنهما كانا قريبين من رؤوس الأولاد . ولم يكن لدى أى شك فى أنه إن لم يوقف هذان الملعونان الشغب الذى يحدثانه ، فلا مفر من أن

أحدهما سوف يسقط فى حجر سيدنا .

لا أعرف كم من الوقت انقضى عليّ وأنا على هذا الحال ، كل الذى أتذكره أنى سمعت جلبة وأصواتاً عالية آتية من بعيد . عرفت على الفور أن مصدرها عمي وأنه بدأ جولته الصباحية فى أزقه البلدة ، وخفت أن يرانى وأنا على هذا الوضع ، فقلت فى نفسي : لامفر إذن من الدخول ، فالكتاب أهون .

وهممت بالفعل ..

نزلت بقدمى ودخلت . دنوت من الأولاد ببطء . كانوا كلهم منشغلين بالتلاوة وظهورهم إليّ . لم يشعروا حتى بوقع خطواتى . إنتبهوا فقط لما رفع سيدنا رأسه نحوى . أداروا رؤوسهم إليّ فى نفس واحد ، فتوقفت في مكانى وتوتر الجو . اكتساهم الوجوم فى أول الأمر . ظلو يحملقون فىّ لحظتين أو ثلاث ، ثم شاطت فيهم النار . لم يسكتوا إلا لما نزل عليهم سيدنا بالعصا . التفت نحوى بعدها ، وأشار لي كى أجلس فتربعت بجوار ولد ضرير وعيناي فى الأرض . ومضى الوقت دون أن أسمع كلمه واحدة من كلام سيدنا . كنت مشغولا . أتوقع زغدة فى جنبى ، أو لكمة من أحد . ولم يكف قلبى عن الدق . وبدا لى الكتاب كئيبا وليس فيه نسمة هواء واحدة .

رفعت عيني ونظرت إلى ولد . وجدته هو الآخر ينظر إليّ . ولد آخر

يميل برأسه نحوى . ليس واحداً . بل اثنين . ثلاثة . كلهم يحدقون فىَّ ، حتى الجالسين ورائي بدأت أشعر بهم . وسيدنا كان مستمراً فى التلاوة. لم يكن معنا ، ولا واحد منا كان معه .

لم أجد حلاً إلا النظر فى ظهر الولد الجالس أمامى . شدتنى إليه نملة تصعد على هدومه . كانت صغيرة . أصغر من النمل الذى نراه . وتسير فى خط مستقيم . من أسفل لأعلى ، ثم ما تلبث أن تغيب في ثنايا الجلباب لتظهر بعدها معاودة الصعود . ظلت عينيّ عليها ، إلى أن قرصنى ولد فى ساقى . انتفضت . قمت نصف قومة وعدت ، ولم أفتح فمى بكلمة . لم اجرؤ . تزحزحت فقط حتى طرف الحصيرة ، وتزحزح الولد الضرير معى . هفا قلبى اليه لما فعل ذلك ، ربت على ركبته فمال برأسه نحوى متبسماً ثم عاود النظر إلى الأمام .

وفى موعد الغذاء فك كل منّا صرّته . أخرجنا الخبز والجبن القريش. تعجبت من الضرير عندما مد يده إلي طعامى وتحسسه . واستغربت من دهشته ، لما عرف أنه ليس معى حلاوة طحينية وبيض مسلوق أو أى شئ مما يأكله الأغنياء .

الكتاب وقتها كان كالسوق . أكل . وثرثرة . ومزاح بالأيدى . أنا والضرير فقط كنا صامتين . أردت أن أسأله عن الحلقة المعدنية المتدلية من حلمة أذنه اليمنى لكنى آثرت الصمت ، حتى لا أفقد الصديق الوحيد لى

فى الكتاب .

قل الضجيج لما عاد سيدنا . هممت ساعتها بالكلام مع الضرير. سبقنى هو . رفع رأسه ناحية السقف ، وقال إن أباه مأذون البلدة ثم عاد برأسه وسألنى إن كنت أعرفه . أجبت بالنفى ، فقال : هو فى السجن الآن وكل الناس تعرف حكايته ، ونظر برهة إليّ وعيناه فى عينيّ . مال نحوى بعدها ، وقال بنبرة حادة : أمك تعرف كل شئ ، اسألها عندما ترجع إلى البيت .

نزلت ببصرى إلى الأرض ، وسعلت بلا سبب . سألنى إن كنت مريضاً، قلت له : نعم بلا تفكير ، وحملقت فى عينيه ولا أعرف لماذا ساورنى الشك للحظة فى أنه ليس أعمى .

وبحركة غير واعية ، وبلا صوت ، تزحزحت بموخرتى بعيداً عنه. لكنى تراجعت . شيء قال لى مرة ثانية إن الضرير يرانى .. وازدادت حيرتى ، فظللت ساكتا والضرير ساكت هو الآخر . دام الصمت بيننا إلى أن تحسس ظهرى بأطراف أصابعه . قلت له على الفور : هل تزور أباك. رد على بتثاقل ، قال : لا . الناس أخبرت أمى أنه مات فى السجن . ثم هز رأسه مرتين ، وبدا وجهه غريباً وهو يقول : أمي صدقت الناس، لكني لا أصدقهم وأعرف أن أبي ما زال حيا .

نظرت إليه مدهوشا ، وصممت على الابتعاد عنه . لم أكد أفعل

حتى أقترب منا ولد . زغدنى فى صدرى ، وصاح في قائلاً : إن مثلى يجب أن يستحي من نفسه ، ولا يحق له الامساك بالمصحف الشريف والقراءة فى كتاب الله .

أشار له الضرير أن يسكت .

لم يعبأ الولد بالإشارة . أمسكنى من ياقة الجلباب وشفتاه ترتعشان. وأخذ فى الصياح ، سمعته يقول : أمك تعيش فى الحرام مع عاشور النطع . ليس من الآن . من زمن وهى تعاشر الرجال فى الحرام ، والناس كلهم يعرفون ذلك .

لا أعرف ما الذى فعلته وقتها ..

كنت أرتعش من شدة الانفعال ، ويداى تعلوان وتهبطان علي صدغ الولد ورأسه . وانقلب العيال كلهم ضدى ، فمنهم من كان يجذبنى من الخلف ومنهم من كان يلكمنى فى ظهرى أو يضربنى بأى شئ فى يده . ولمحت ولداً يأتى من الجانب الأيسر ، ويهوى بفردة حذاء على رأسي . أحسست لحظتها بأنها انشطرت نصفين ، وغامت عيناي على سيدنا وهو يهرول نحونا ووجهه أصفر كحبة الليمون .

أفقت بعدها لأجد نفسي ممدداً على الأرض ، وأمامى سيدنا وإمرأته. وانزوى الأولاد فى الاركان . أفواههم مغلقة ، وينظرون . كانت المرأه تضع رأسي فى حجرها وتدعك أنفى ببصلة وسيدنا مخضوض ، وحبات

عرق كثيرة تسيل خلف أذنيه . وفى عز الانفعال استغربت وجهه ، لما رأيته بلا عمامة ورأسه حليقة بالموسى .

عادت الروح الى سيدنا لما رأنى أفتح عينيّ .أجلسني بجواره وهو يطيب خاطرى ، ثم انحنى عليّ ودنا بوجهه من وجهي . كان حاجباه غليظين ، ويعلوان ويهبطان كلما تكلم . ووجهه كبيرٌ وخائف ، وهو يحلفني بالله ثلاث مرات ألا أقول لعمي ، وأحاط معصمي براحة يده وقال بصوت خفيض وعيناه غائمتان : أنت لاترضي بقفل الكتاب وخراب البيوت ..

لم يكلمنى أحدٌ على هذا النحو من قبل ، فاحترت فى الذى أقوله . لبثت واجما لحظة ، ثم هززت رأسى له وبدأت فى النظر الى الأولاد . كانوا كلهم فى مواجهتى . الخوف فى وجوههم ، ومنهم من كان يبكى . كنت خائفاً أنا الآخر ، وانتابتنى نوبة بكاء حادة . لم أسكت إلا لما رأيت سيدنا يجر هذا الولد من هدومه وينزل بالمداس على ظهره . وبدأت أحملق كالأبلة فيما يجرى حولى . رأسى كانت فارغه ولا أعرف ماذا أفعل ، وأتت أمي على بالي ، فازدادت شهقاتى وهممت فى البكاء مرة ثانية .

* * *

لم أجرؤ على البوح بكلمة واحدة لأمي ..

أعود كل يوم من الكتاب ، فأجدها جالسة على عتبة الباب . أسند ظهري الى الجدار ، وأبدأ فى العب مع المسخوط . ترنو بعينيها إليّ بين الحين والحين ، وأبادلها النظر أنا الآخر وقلبي يلوك في كلام لايقال .

وفى يوم عدت مبكراً . وجدت عصا عمي معلقة على المسمار ، وأمي جالسة فى الحوش ، بجوارها دجاجة مذبوحة وأمامها صينية نحاسية على سطحها كومة كبيرة من الأرز .

خلعت مداسى . وأول ما جلست قالت لى : اقفل فمك فعمك نائم . لم أرد عليها . تحولت ببصري الى الدجاجة . كانت مذبوحة لتوها ورجلها اليمني تنتفض بحركة تشنجية ، وعلى مقربة منا دجاجتان كفتا عن النبش فى التراب ، وقبعتا تحملقان فى وجوم . أشرت إلى الدجاجة المذبوحة وقلت لأمي : إن الروح ما تزال فيها . لم تجب . كانت منهمكة فى نقاوة الأرز ، وأصابعها تروح وتجيء عليه بسرعة عجيبة ، وبدا لى وجهها ممصوصاً ، وأنفها كأنما ازداد طولا .

لم أسمع فى حياتى شخيراً مثل شخير عمي . كان عاليا ويأتى إلينا حتى منتصف الحوش ، وإذا توقف تلتفت أمي وراءها بحركة لا إرادية ، ثم تعود للأرز . كنت التفت مع التفاتتها ، وأرى نبوته الطويل بارزاً من حافة الشباك .

ولدٌ فى الكتاب قال : إنه كثير الشجار هذه الأيام . تعارك مع عائلة

السني ثلاث مرات ، ويصق فى وجه كبيرهم أمام الناس . سيدنا كان جالساً وراء هذا الولد وهو لايدرى . سابت مفاصله لما سمع الكلام ، ونزل (بالكفوف) على قفا الولد ، وحلف عليه إن هو كررها ثانية لن يدخل من عتبة الكتاب .

أمي كانت مشغولة وحبات العرق تتكاثر على جبينها ، وتروح وتجئ كلما هزت رأسها . شغلها الأرز عن كل شئ . لم تنتبه حتى الى كم جلبابى الممزق ، ولا الكدمة التى تعلو حاجبى الأيسر . أنا الآخر لم أقل لها شيئاً ، وكنت أخفي كم الجلباب كلما نظرت إليّ .

ملاعين هؤلاء الأولاد . كل يوم إهانات وعراك ، وعمي لايكف عن الشخير . نوم وأكل وشرب شاى ، ثم يأخذ نبوته ويدور فى البلدة .

أزاحت أمى صينية الأرز فجأة . انطلقت شرارة نار فى صدري أنا الآخر . كدت انفتح فى الكلام . همت مرتين ، لكنى لم أقدر . جف حلقي مرة واحدة ، وهرشت رأسي مرات كثيرة وعيناي مصوبتان إليها ، وهى تحملق فيّ وتقلب كفها متعجبة .

أشارت بعدها إلى صفيحة فارغة بجوارها ، وطلبت منى أن أملأها بالماء حتى تنظف الدجاجة . هززت رأسى لها ، ولم أتزحزح من مكانى . نظرت إليّ ثانية وجفناها يختلجان ، ولما همت بالكلام علقت حبة عرق برموشها . انشغلت بها عنى لحظات ، ثم صاحت بضيق وهى تدعك

عينيها : أسرع فعمك جائع . تظاهرت بأنى لم أسمع . انحنيت على مداسي أفرك الطين الجاف العالق به . وتبسمت . تذكرت الضرير . تعاركنا أنا وهو مع ولد بعد أن خرجنا من الكتاب . طاشت يد الضرير ولكمنى فى وجهي مرتين بدلا من الولد ، وضحكنا نحن الثلاثة وتوقف العراك .

زفرت أمى بصوت عال لما رأتنى أتبسم ، وأمسكت بالصفيحة وقامت . غافلتها وألقيت حجرا نحوها . خجلت من نفسى لما ارتجفت ، وحبست أنفاسى مترقبا . عادت وجلست مكورة يدها فى الهواء وصاحت فى وجهى كى أسكت ، أو أخرج وألعب فى الخلاء .

وكان شخير عمي قد توقف تماما ، وازداد القلق على وجه أمي . مددت يدى الى حجر آخر . لم أكن أريد . لكنى فعلتها . رميته بكل عزمي على الصفيحة القابعة أمام حجر أمي . وأطل عمي علينا من الشباك ، فهبت أمى واقفة . خلعت مداسها وقذفته فى وجهي .

ضربت الأرض بيديَّ وأمسكت بالمداس ، طوحته فى آخر الحوش ودلفت مسرعاً من الباب .

* * *

ويوما بعد يوم قلت رغبتى فى البقاء بالبيت ..

أرجع من الكتاب لأعاود الخروج مع الضرير ، نمشي فى الشوارع

والحارات ونسترخي بظهرينا الى أى جدار .

وساعات كان يقبل علينا ولدٌ من أقرباء الضرير ، وسيالته مملوءة بحبات « براغيث الست » . نظل نستحلبها معه على مهل ونسمع حكايته عن أبيه الذى يضحك بلا سبب وينام طول الليل والنهار .

وكنت أنا وهو نرمى الحصى على الرجال المارين أمامنا . كان الحصى يصيبهم فى ظهورهم وأقدامهم وأحياناً في رؤوسهم . مع كل رمية كنا نتبادل النظر ، ونضع أيدينا على الأرض استعداداً للعدو . ظنوننا كانت تخيب ، فلم يكن أحداً منهم يلتفت الينا . نندهش لذلك ، ونتابعهم بأعيننا . كثيرون منهم كانوا يذهبون الى حرف الترعة ويتمددون، وشخيرهم يأتى إلينا من بعيد .

ومرات كانت تجتاحنا الشقاوة ، فنقلع بعض الأعواد اليابسة من الأرض . نشذبها ونقلم أطرافها حتى تصبح أحد من السكين ، وننسل إلى الترعة على أطراف أصابعنا .

كنا نكتم أنفاسنا ونتسحب بحذر ممتع نحو الرجال النائمين ، ونصوب الأعواد ـ كأنها بنادق ـ على رؤوسهم . ونصيح ، وندبدب بأقدامنا ونخرج أصواتا من أفواهنا كطلقات النار ، وهم لايتحركون أو ينقطع شخيرهم لحظة واحدة ، ولما يشتد بنا الغيظ ننغزهم ببنادقنا في بطونهم وظهورهم .

وأول ما يفيق واحدٌ منهم ، نضع أطراف جلابيبنا بين أسناننا ونجرى كالريح وهو يسب أمهاتنا ويلاحقنا بالأحجار .

* * *

من باكر (المسامحة) ، وعلينا حفظ جزء (عمٌ) فى البيوت .. قالها سيدنا ونحن نتناول الغذاء ، فانفجر الزياط فى كل الكتاب . ألقينا بصرر الأكل فى وجوه بعضنا البعض وقفزنا فى الهواء ، وصحنا أنا والضرير بأعلى صوتينا مثل العيال . لم نتوقف كلنا عن قول : هيه.. هيه .. هيه .. هيه ..

واتكأ سيدنا بظهره إلى الجدار ، وعوج عمامته متبسماً لنا .

لم ننتبه لدخول إمرأة سيدنا ، إلا لما صرخت فى وجوهنا . وهب سيدنا واقفا ، رفع حاجبيه وبان عليه الانتباه وهى تنبئه بأن عربة نقل بمقطورة دهست عاشور النطع ، فرمته (فرم) على السكه التى فى أول البلدة .

نزل علينا الخبر ، فوجمنا كلنا ..

ولما قفز سيدنا من عتبة الكتاب حافيا طرنا وراءه .

كنا نجرى بحذاء الترعة ، ومعنا نسوة ورجال . وصبيان وبنات . الخفراء كانوا يرتدون ملابسهم الرسمية ، وشيخهم يمسك الصفارة فى يده ويشخط فيهم وفينا . والضرير يجرى أمامنا مثل الحمامة . أسرع منى

ومن العيال ، ويدفعنى بمرفقه كلما أمسكت به .

ونحن فى عز الجرى ، رأيت رجلاً بسروال طويل وصديرى مشقوق الجيوب . كان طويلا وينحنى علي الناس ويقول : جاءته طلقه من الذرة وخلصت عليه فى الحال . وواحد ذو لحية بيضاء حلف بالله أربع مرات وبعدها بالطلاق ثم قال : إن عائلة السني هى التى جرته من هدومه ونزلت على رأسه بالنباابيت . وكانت وراءنا إمرأة مكحلة العينين ، تولول بلا انقطاع وحولها نسوة ساكتات ، ورجل بجلباب مزركش يبكى من أول الطريق والناس تنظر اليه باستغراب .

أتت أمي على بالى فجأة ، فبدأ قلبى فى الخفقان .

أزدت من سرعتى ، وأمسكت الضرير . جررته من يده وقفلنا راجعين.

الدور كلها كانت تبدو أمام عيني وأنا راجع مفتوحة النوافذ والأبواب، والناس لاتزال تجرى منها ومن الحقول ، حتى الزرازير والحمام واليمام هجت من أعشاشها لتلعب في السماء . بيتنا هو الذي كان ساكتا من بعيد . ولما دنوت منه انقبضت نفسي ، وطرقت الباب بكلتا يدَّي .

تملكنى الخوف أول ما فتحت أمي ..

شعرها كان محلولا ..

ومن فتحة الباب لمحت عصا مثل عصا عمي معلقة على المسمار ، وملفعة هى الخالق الناطق ملفعته . ملت برأسي نحوها وأنا مذهول . التقت أعيننا لحظة واحدة ، لم أقو بعدها على مداومة النظر .

شردت مني عيناي إلى الأسفل ، وهامت بلاضابط حول موضع قدمي. ترى الأشياء ، ولا أعيها أنا . تحملق فيها ، وأنا لا أكاد أتبين. وأول ما ظهر مداس أمي في مجال رؤيتها إنتبهت قليلا . بدا لي حجمه أكبر من المعتاد ، وتتساقط عليه قطرات ماء من شعر أمي المبلول .

كنت أراها وهي تتكاثر حتى غطت المداس كله . وأسمعها كالنقر في أذني ، رغم أنها بلاصوت . وشيئاً فشيئاً لم أعد أسمع . قل إدراكي بما حولي ، حتي الضرير لم أنتبه اليه وهو يجذب ذراعه مني وينزوي في أحد الأركان .

وران الصمت في المكان ..

الدنيا كلها سكتت . الأنفاس . والحيطان . والأبواب . وأنا لا أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول . كان عقلي هاربا منى تماما ، حتى أني لم أفهم - وقتها - أن النظرة التي كانت تلوح في عين أمي هي نظرة عتاب .

كل الذي اتذكره أني عدت ببصري مرة ثانية الي العصا . ولحظتها اخترق الدم الفائر كل رأسي ، واندفعت يداي تلوحان في وجه أمي بلانظام . أذكر أيضا أني ركلت الأرض بقدمي ، ونطقت بكلمة أو

كلمتين لم يكن لهما معني . وبدا صوتي ـ ذاته ـ غريبا على مسامعي . لكني أحسست بعدها أني لاأزال مستمراً فى الكلام .

كنت أتكلم . وأقول وأعيد ، دون أن أسمع كلمة واحدة مما أقول. شفتاي تتحركان ، وحلقي يمعق مني الكلام . أصيح وكأني لم أصح . حالي كان مزريا ، ولم يأت في بالي أبداً أن صوتي محتبس ولم أعد قادراً على الكلام .

ولما انتبهت إلي نفسي ، رجعت الي الوراء .

تراجعت بظهري ، وأنا أخفي وجهى من عينيّ الضرير .

وهي لاتزال واقفة ترمقني بنفس نظره العتاب ، وعيناها الساهمتان تموجان بدمع كثيف .

دمع يتململ على قاع تبدل لونه ، وأورده محتقنة بالدماء .

* * *

نشرت بجريدة الأهرام
فى ١١ فبراير سنة ٢٠٠٠

مشـــــوار

كانت تجلس على مقربة من زوجها ، وأصابعها منهمكة فى رتق جلباب صغير .

قال لها وهو يهم بالوقوف :

- الدنيا بقت ليل يا أم مصطفى . يللا يللا علشان تودى الوله عند أبوه .

لم تجب . تطلعت نحو النافذة حيث غبشه المغرب تملأ الأفق ، ثم انحنت بتثاقل تسحب علبة النشوق من أسفل الشلتة التى تجلس عليها.

ارتفع صوته قليلا :

- بقولك قومى ودى الوله .

استدارت إليه غاضبة :

- وهو يعنى أبوه مستعجل على أيه . دا تلاقيه دلوقتي ملخوم مع بسلامتها عروسته .

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله . وهو احنا هنرجع للموال ده تاني ! يا ستى كل واحد أولي بضناه .

غمغمت قائلة : ضناه . ضناه دا أيه . وهو التيس ده يعرف حاجه عن ضناه .

ـ أم مصطفى قومى أحسن لك وفوتى الليلة دي على خير .

إشرأبت بعنقها تجاه قامتة المنتصبة أمامها ، وأردف هو مشيراً إليها بإصبع السبابة .

ـ وحسك عينك تغلطى بكلمة هناك . أنا مش ناقص وجع دماغ . فاكره المرة إللي فاتت لما مسكتوا فى خناق بعض إنتي وهو . الراجل ساعتها عملى حساب وسكت . إياك المرة دي تطلع منك كلمة كده ولاكده . بقولك أهه . إياكى .

ارتخت أصابعها شيئاً فشيئاً على الجلباب الذى فى يدها ، وهى تتمتم « رجاله ملاعين ولاد كلب . يا حبة عيني عليك يا ابنى . مش هينوبك إلا البهدلة ».

قامت وجمعت غياراته . والشبشب . والجلبابين . والأشياء التى يلعب بها . زجاجة فارغه وأستيك ساعة قديم وقرش صاغ مخروم وقطعه فى حجم الكف من قرن جاموسة . وضعتها كلها فى ملاءة قديمة وصرت عليها ، ثم دلفت من عتبة الباب تتلفت عليه .

كان على مرمى البصر . منزويا على جنب ، يرمق الأولاد وهم يلعبون أمام دكان على ناصية الشارع .

مشت ووقفت بالقرب منه . بان لها وجهه على ضوء الكلوب المتدلى أمام باب الدكان . هو .. هو .. وجه أمه . جبهتها العريضة . الأنف الصغير . والغمّازتان . حتى عينيه ، سبحان الله هما عيناها الواسعتان.

راحت الغلبانة فى شربة ماء ..

جائتها السخونة بالليل (وفرفرت) منهم كالفراخ ، ولم يصبر قليل الأصل إلا ليوم الأربعين ارتدى بعدها جلبابه الصوف والطاقية الوبر وأخذ فى اللف على البيوت عارضا نفسه للزواج ، وكلما عاتبه الناس كان يتململ ويقول « البيوت أسرار . وأنا راجل ليه مطالب ومحتاج لواحدة ست تشوف شئون البيت ».

لم يستح الحلوف من فعلته ، وجاء برجليه يدعوها هى وزوجها لحضور الفرح . تربع فى بحراية الباب ، يتكلم ويضحك والفرحة تنط من عينيه . حدثتها نفسها ساعتها أن تلقى ببراد الشاى فى حجره ، أو تقوم وتبصق عليه . دارت غلها منه إلي أن خرج ، ثم هبت واقفة تشيح فى وجه زوجها وتقول « والنبى لو سمعت كلام الراجل الناقص ده ورحت الفرح ما أنا قاعده لك فى البيت » . لم يعبأ بكلامها ، وانتفخت عروق

رقبته وهو يصرخ فيها أمام الخلق « جرالك أيه يا أم مصطفى . احلفى على روحك وملكيش صالح بيه . دا صاحبى وأنا رايح رايح » .

وكان نهاراً أسود ، وعراكاً طول الليل .

* * *

عضت على شفتها واقتربت خطوة أخرى من الدكان ، مالت برأسها نحو الولد ثم استدارت فجأة ورجعت . وقفت أمام عتبة الباب . كادت أن تدخل وتفك الصرة ليحدث ما يحدث لولا زوجها ، سمعت سعاله بالداخل فعدلت عن تصميمها .

ظلت فى محلها لاتعرف ما الذى تفعله الى أن أحست بزوجها وهو يهم بالخروج ، فعادت الى الدكان مرة ثانية .

نادت عليه . رفع رأسه ناحيتها ، ثم عاود النظر إلى الأولاد .

صاحت فيه :

ـ مصطفى . مصطفى . واد يا مصطفى !

أقبل عليها ، وعيناه على صره الهدوم .

تبسمت له .

ـ يللا يا حبيبي . أبوك مستنينا .

مشى معها خطوتين ، ثم شد جلبابها وقال .

ـ الدنيا عتمه يا خالتى . خلينا لبكره .

ـ ملكش حق بقه . كل يوم تقول خلينا لبكره . أحسن أبوك يزعل .

ـ أنا خايف لمرات أبويا تضربنى .

أدارت عينيها إليه ، وقالت بنبره غاضبة :

ـ تقدر . تضربك دا أيه ! . جتها ضربة فى قلبها .

ثم وضعت ذراعها على كتفه ، وأردفت بصوت ناعم .

ـ وهو أنت تايه عنها . دى فاديه كانت صاحبة أمك الروح بالروح .

تملكه الانفعال فجأة ، أفلت من ذراعها وخبط الأرض بقدمه وصاح في وجهها .

ـ يارب تموت هيه كمان .

نظرت إليه وسكتت .

وأطرق رأسه هو الآخر ومشي إلى جوارها صامتاً .

* * *

مضى شوطا من الطريق وهما صامتان . خرجا من شارع ودخلا فى آخر ولفا يمينا ويساراً . كان المغرب قد فات ودخلنا فى أوان العشاء . الناس كلهم فى البيوت والشوارع خالية تقريباً ، وهى تسبقه بعدة خطوات . قامتها نحيلة ومحنية الى الأمام مثل أمه ، وصرة الهدوم تروح وتجيء فى يدها .

أسرع حتى سار بمحاذاتها . شفتاها كانتا مضمومتين وعيناها

ساهمتان . رفع كلب ممدد على الأرض قائمتيه الأمامتين وزام فى وجهه فأمسك بذيل جلبابها ، إلا أنها لم تشعر . نادى عليها . لم ترد . أطبق شفتيه هو الآخر ، وهبط بعينيه إلى الأرض . وشيئاً فشيئاً ثقلت خطواته، وسبقته مرة ثانية .

كانت تسير بخطوات رتيبة ، ووجهها ساكن تماما . بالها هو الذى كان مشغولاً ، وأفكار كثيرة تروح وتجيء أمام عينيها .

زوج عقيم ولا أهل لها أو ولد ..

لم يكن لها فى الدنيا إلا أختها ، وأكلها الموت فى غمضة عين . لو كان فى الدنيا عدلٌ لبقي الولد معها . هى أحق به من ابن « المركوب».

عشر سنين وأختها تحت رجليه . تخدمه خدمه العبد للسيد . لاعشرة راعاها ، ولاحزن بان عليه . لاهو ولافادية بنت « الأبالسة » . دخلت على فرشها وهدومها ومصاغها . طبل وزمر . وزفة وزغاريد ، وضرب نار . كأن أختها لم يكن لها وجود ، ولاعاشت يوماً فى هذه الدنيا .

من قبل أن تموت أختها والولد عندها . يأكل من يدها ، ويلعب وينام أمام عينيها . يخاف من العفاريت ، تترك له لمبة الجاز والعة طول الليل. يقوم مفزوعا ، تجرى عليه وهى فى عز نومها ، وإن تململ زوجها أو برطم تضحك عليه بكلمتين .

بال على نفسه مرة . مات فى جلده ساعتها . دارت عليه . لم

تشعره حتى بأنها عرفت أو شافت . فعلها مرتين بعدها . راحت من سكات الى الشيخة روحية . أتت المرأة . فرأت له القرآن ، ووضعت له حجاباً فى المخدة . توقف بعدها . لم يفعلها الا ليلة الأمس .

ساعه زمن وينتهى كل شئ ..

ترجع وحدها . وتترك الولد فى يد فادية . مشوار لم يكن فى البال . وهم كبير فى انتظارها . نبتة أخذتها الريح ، وجلسات طويلة أمام عتبة الباب ، وزوج غافل عن حجر الطاحونة الذي يفري القلب .

أخذت نفساً طويلا وتاهت مرة ثانية فى صمت عميق .

ازدادت خطواتها رتابة ، والولد يرمق الصرة فى يدها وقلبه هو الآخر يقول ويعيد .

تقلقل حجر تحت قدمه . رجع إلى الوراء ، وشاطه بكل عزمه فانخلعت فردة حذائه . صاح عليها مرات كثيرة ، غير أنها لم تنتبه . إنثنى على الأرض وظل يعافر بيديه حى أدخل فردة الحذاءفى قدمه . عجز عن إحكام عقدة الرباط ، وكانت خالته قد ابتعدت . قام مسرعا يلهث خلفها وهو يتلفت حوله .

كثيراً مامر من هنا هو وأمه . كانا يأتيان لزيارة خالته كل يوم خميس . ساعات تأتى معهما فادية . يظل يلعب مع الأولاد . ويجرى . يختبئ منهم ويختبئون منه .

وعندما يسمع آذان العشاء ، كان يسرع إلى بيت خالته . يتعشى ويضع رأسه فى حجر أمه وينام . تظل توقظه بعدها ولافائدة ، فتحمله على صدرها وهي عائدة . خطوتين وتنقطع أنفاسها . تسرع إليها فاديه وتحمله على كتفها باقى الطريق .

انتبه فجأة ..

لم يبق إلا شارعان . هذا الشارع إلى نهايته ، ثم يدوران يساراً . البيت فى نهاية الشارع الآخر . بجواره أرض فضاء ، وبعدها بيت فادية . الأولاد هناك ثقلاء الظل . لايحب اللعب معهم . دفعه ولدٌ منهم مرة بيده . سقط على الأرض والتوت قدمه . لم يشأ ساعتها قول شيء لأمه . كانت مريضة . جرى إلى خالته . اربد وجهها من الحنق ، وأخذته فى حضنها وهي تقول « من الفجرية هروح لأمه . وأعرف شغلي معاها ». ومن يومها لم يقترب منه الولد .

ألح عليه طيف أمه ..

آخر مره رآها فيها ، يوم أن جاءها الطبيب إلى البيت .

كانت راقدة ، وكتفاها مستندان على عارضة السرير . الطبيب جالس على مقعد بجوارها ، وحقيبته مفتوحة على آخرها . خالته وفاديه كانتا تستندان بظهريهما إلى الحائط ، وإمرأة عجوز من الجيران متربعة على الأرض ، وهو واقف فى طرف الحجرة لايلحظة أحد .

كانت الدنيا ليل . لاحس ولاحركة فى الخارج ، ورائحة غريبة تملأ الجو .

لم يكن يعرف أن أمه ستموت . كان باله مطمئنا من هذه الناحية . لم يدهمه القلق الا لما أرسل أبوه سيارة إلى البندر لتحضر الطبيب . اقترب ساعتها من فادية . وضعت يدها على رأسه ثم مالت عليه وهمست بنبرة باكية « مفيش حاجه يا مصطفى . دا الحكيم جاى بس علشان يديها شوية مقويات ».

خف قلقة لما جاء الطبيب . تسلل خلفه . أخذت عيناه تبحثان فى محتويات الحقيبة . مقياس للحرارة . وقلم جاف . وأوراق بيضاء أصغر من حجم ورق الكراسة . لم يكن بها لا دواء ولامقويات . والطبيب يتنقل بالسماعة علي صدر أمه . القلق باد علي وجهه ، وأنين مكتوم ينبعث منها . مال بعنقه نحوها . تبسمت له . واستدار الطبيب إليه . تبسم له هو الآخر .

كان الوقت ليلتها لايتحرك . وأبوه جالسٌ على المصطبة أمام البيت مع أناس كثيرين . ونسوة يجلسن فى صفين متقابلين ، على حصيرة طويلة فى الدهليز . صامتات ، وينظرن إلى بعضهن البعض . وطفلان صغيران في منتصف الحصيرة لايكفان عن الضحك ، ويحبوان جيئة وذهابا بلا ملل .

سرت شرارة نار فى الجميع ، لما هب الطبيب واقفا . كانت خالته أقرب واحدة إليه . قال لها « هيه الحاجة أختك » . أومأت بالايجاب ، فرفع يده فى الهواء وقال « دي لازم تتنقل المستشفى حالا ».

مادت به الدنيا فى هذه اللحظة ، وانقلب الصمت إلي فوضى .

خرج الطبيب مسرعا . تكلم مع أبيه كلمتين وانطلق بالسيارة . إسود وجهه والتف حوله الناس ، ودارت الوشوشة بين النساء .

لم ير أمه بعدها ..

أخذه زوج خالته في يده ورجع إلى بيته . بقي عنده يومين . في فجر اليوم الثالث ، جاء مرسال من أبيه . كان نائماً . ألبسوه علي عجل . سمع صراخا قرب البيت . جذب كفه من يد زوج خالته وجري . كانت خالته واقفة أمام باب غرفة أمه ، تصرخ بأعلي صوتها وتضرب بيدها على رأسها ، وجلباب فادية مشقوق من على صدرها .

* * *

انتبهت خالته إليه ، نغزته في كتفه وقالت :

- مصطفى . واد يا مصطفى !

التفت اليها ، فقالت .

- إنت دماغك بيودي ويجيب في أيه .

نظر إليها بعينيه المحتقنتين ، فأردفت .

ـ مالك . مالك يا وله . طب إصحي لنفسك بقه . أحسن بسلامته أبوك بيبص علينا .

نهض أبوه بتثاقل من على مقعد من الجريد كان يجلس عليه . كان طويلا عريضا ، وأطراف شاربه تصل إلي منتصف صدغه . أمسك بأطراف ملفعته . أحكمها علي عنقه ورأسه ، وظل واقفا حتي أقبلا عليه .

تنحنح ، وقال بصوت مضغوم :

ـ والله سلامات يا أم مصطفي .

دق قلبها بعنف ، ووقفت ساكتة .

أشاح بوجهه عنها ، واقترب من مصطفي . شده من أذنه ، وقال بوجه باسم :

ـ وانت كمان . كنت غطسان فين يوم الفرح .

ثم التفت اليها ، وهي تقول له :

ـ مستعجل علي أيه . الواد قاعد ومبسوط وبيلعب مع العيال .

ـ تشكري لحد كده . ودا شيء مفيش منه بد .

هرش رأسه بعدها ، وقال :

ـ وانتى عارفه فادية كويس . دي غلبانه وهتريحه على الآخر .

لم ترد عليه . مشت هي ومصطفي خلفه صامتين ولما دلفوا من

الباب أسرعت إليه فادية وانحنت عليه . جرى من أمامها ، وأمسك بيد خالته .

فقالت لها :

ـ معلهش ياختي . أصله مستغرب .

مطت شفتها ، وقالت وهي تهز منكبيها :

ـ مستغرب من أيه يا حبة عيني . هو أول مره يشوفني . ما احنا طول عمرنا جيران .

رمقتها خالته بنصف عين ، ثم زفرت وجلست . وسعل أبوه سعلة خفيفة ، ثم ضحك بلاسبب وجلس علي الكنبة . ولبد هو بجوار خالته . وضع صرة هدومه في حجره ومال ببصره نحو الأرض ، وتربعت فادية بجوار أبيه .

مرت برهة من الوقت ، لم يفتح فيها فمه بكلمة . وخالته كانت ساكتة ، لاتتكلم الا بالحساب . أبوه هو الذى كان يتكلم ويضحك. تمطأ بعدها مرات كثيرة وهو يتثاءب ثم سكت .

رفع رأسه . التقت عيناه بفادية . تبسمت له . أرخي رموشه وتشاغل بالنظر في الخطوط والدوائر المرسومة علي السجادة . وعندما أحس بأنها استدارت بعيداً عنه ، تسّحب بعينيه إليها . دوائر كثيرة من الترتر الرفيع تحيط بفتحة صدرها ، ونمش كثير يملأ وجهها وأصباغ . لم

يعد لها ضفائر . شعرها ـ كله ـ كان ملفوفا ومختفيا تحت تربيعتها الصفراء وحلقها الذهبي كان كبيراً ، ويهتز كلما تلفتت أو تكلمت.

لمحته بطرف عينها ، فسقط ببصره في الحال علي موقد الشاي .

كان بجوار قدميها ، لا تفصله سوى بوصه أو بوصتين عن ذيل فستانها الأحمر . ظل ينظر إلى الموقد وينصت إلى الوش المنبعث منه . وانساب إليه صوت أمه ، كأنها توشوشه في أذنه .

خيل إليه أنها تجلس معهم . بجواره . في الفراغ النحيل الذي يفصله عن خالته . تلامسه . تراه ويراها . يمرر أصابعه على فستانها القطيفة . يعبث بأطراف طرحتها السوداء . تنحسر قليلاً عن رأسها . تعيدها . تنحسر مرة ثانية . تعيدها وهي تتبسم . عيناها تضحكان . وأنفاسها تغمر وجهه كله ، وتختلط برائحة قدح الشاي .

أخذت يده في يدها . همست له بكلام كثير .

كان صوتها خافتا . واهنا . يموج في رأسه مختلطا بوش الموقد. تتكلم . وتتوقف . تأخذ أنفاسها ثم تعود وتتكلم . كلام أشبه بالهسيس . وقلبه ينبض . ويتوتر . ثم يدق . عقد جبينه . أصاخ سمعه أكثر وأكثر ، وعيناه ثابتتان علي غطاء البراد ، وهو يتقلقل علي الموقد. وبخار يلوح أمامه . يعلو ويتلوي ، ثم يذوب في الهواء .

انتبه لما انحنت فادية علي الموقد ، وأزاحته بعيدا عن طرف

فستانها . شعت عيناه على سوار أمه الذهبي ، وهو يتدحرج على ساعدها ويعلق بمعصمها .

طافت بخاطره لما كانت تجئ لأمه كل يوم بعد آذان العصر . كانتا تتكلمان وتضحكان بالساعات . إن تأخرت تقول له أمه « يللا يا مصطفى . اجري شوف فاديه مجتش ليه ».

أول ما تراه قادما تمسك به وتحمله علي صدرها . ينغزها بأظافره في خدها ويشد ضفائرها . تغتاظ منه وتقرصه فى فخذه . يملص نفسه منها . يجري غاضبا ويلقي عليها الحصي ، وهي تضحك علي آخرها وتجرى خلفه .

* * *

أطفأت فادية الموقد ولمت عدة الشاي ، فهبت خالته واقفة على الفور، وقالت لأبيه .

ـ أنا ماشيه ياخويا . وصيتك مصطفى . والنبي ما تنكد عليه ولاتكسر بخاطره . حكم أنا عارفاك ملكش خلق .

رد عليها بدهشة :

ـ جري أيه يا أم مصطفي . الواد راجع بيته وأنا فى الأول والآخر أبوه.

ضاقت ملامح وجهها فجأة ، وقالت :

ـ أنا مغلتطش يا خويا لما أوصيك عليه . مش هو ابني برضه .

انقلبت سحنته هو الآخر ، وأشاح بيده في وجهها وقال :

ـ لأه لأه . إنتي حيا الله خالتـه ، وسيبينا من الكلام اللي ملوش لزمه.

ثم أشار الي فادية ، وأردف :

ـ أمه من هنا ورايح أهيه . وكل واحد بقه يلتفت لمصلحته .

غاضت الدماء من وجه الولد ، وتاهت هي بعينيها في وجه أبيه .

قالت له بصوت خافت .

ـ بتقول أيه ! حيا الله خالته ! كان غايب عني فين الكلام ده .

ثم رجعت خطوة الى الوراء ، وأردفت وشفتاها ترتعشان .

ـ كلام ملوش لزمه !! لك حق لك حق . وأنا اللي ..

واقتربت منها فادية ، وقالت .

ـ اطمني . مصطفي في عنيه .

أجابتها ذاهله :

ـ عارفه ياختي ! عارفه !

وأطرقت رأسها وخرجت .

* * *

أمسكت فادية بكتف زوجها ، وهمست في أذنه .

رفع حاجبيه ، وقال :

ـ آه والنبى صحيح ينام فين .

سكت بعدها برهة ، ثم قال وهو يفرد ساقيه لينهض .

ـ آهو ينام معانا بقه .

زفرت بضيق :

ـ كلام أيه ده . وده ينفع .

ـ طب الليلة دى . ما هى أوضه أمه ! وطول عمره ببيات فيها !

تقلقلت على الكنبة . رفعت رأسها نحوه ونظرة غضب تلوح في عينيها .

ـ لا الليلة ولاغيرها . إنت مش واخد بالك ولا أيه .

وساد الصمت ، إلى أن هبت واقفة فجأة وأردفت بحماس :

ـ ولا أقولك . ينام فى المندرة الكبيرة .

نظر إليها باستغراب :

ـ مندره أيه يا فادية . ما انتى عارفه إن الفيران سارحه فيها . دا كان الواد يتسرع .

ردت عليه بغيظ وهى تتجه إلى باب الغرفة :

ـ انت حر اعمل اللى بدالك . أنا داخله أغير هدومي . الدنيا حر وجسمي كله مولع نار .

واستدار هو الى الولد ، تلفت حوله وفرك يديه وقال :

ـ بقولك أيه . يللا يا بطل دخل صرتك تحت أي كنبه من دول ونام عليها .

تمخط بعدها ، وقال :

ـ وأنا من الصبح بدري هجيب مصيدة للفيران واحطها فى المندرة الكبيرة . دى المندرة واسعه وبرحه .

وأخذ اللمبة فى يده ولحق بزوجته .

وظل الولد واقفا يتحسس شحمة أذنه ، ويرمقه بعينيه وهو يغلق باب الغرفة .

فى عز الليل أحس بوقع أقدام تقترب منه ، ويداً نحيلةً تمر مروراً خفيفاً على شعره .

طرفت عيناه وتلفت حوله . كانت الدنيا ظلام في ظلام ولم ير شيئاً .

سحب المخدة من تحت رأسه . احتضنها بيديه ودس وجهه فيها .

* * *

نشرت بجريدة الأهرام فى
٢٤ يوليو سنة ١٩٩٨

أيـام فى المنفى

أغلقت الهانم باب السيارة ونقرت بأطراف أصابعها على حافة النافذة الخلفية ، فتطلعتْ إليها ليلى من الداخل .

قالت بنبرة آمره :

ـ خليكى قاعده مطرحك . غبت دقيقة غبت ساعة . لاحس ولاحركة طول ما سيدك حسام نايم .

ـ حاضر يا ستى .

ـ تعرفي لو نزلتي من العربيه . ولاعملتي حاجه كده ولاكده هسود عيشتّك .

هبطت البنت برأسها ، وهي تتمتم بصوت خافت :

ـ حاضر . حاضر يا ستي .

عبرت الهانم الطوار ، تمهلت برهة قليلة أمام فاترينة المحل المقابل للسيارة ، وعيون ليلى ترمقها من الخلف . استراحت لما رأت سيدتها

تدلف من عتبة المحل .

بشر كثيرون يملأون الطوار . رجال ونساء . كبار وصغار . يروحون ويجيئون . خطواتهم أسبق من رفيف العين ، ولايتوقفون عن الكلام . وعربات بمختلف الأحجام . كلها تغلى ، وتشهق وتزعق على بعضها بأصوات أعلى من نعير الجاموس .

مدت عنقها . تطلعت برهبة من وراء الزجاج . الخلق غير الخلق . الوجوه كلها غريبة . لاتعرف أحداً من كل هؤلاء الناس . وأبنية في كل مكان . عالية . كلها في السماء . والمحلات . واحد . إثنان . ثلاثة . أربعة . وعلى الجانبين . ليس لها نهاية .

طقت الدهشة فى كل عروقها . دهشة بها رعشة . وتوجس . ودعوة إلى القلب بأن يخاف .

حام فى بالها ـ للحظة ـ أن تنزل من العربة ، وتحسست بالفعل مقبض الباب . لكن شيئاً منعها . قال لها : أنها لو خطت بقدمها ، ولو خطوة واحدة . سوف تضيع ! تضيع ولن يعرف لها أحدٌ بعدها طريق .

أرخت يدها إلي جوارها ، وأخذت تتلفت حولها وتعلو وتهبط برأسها. دارت عيناها فى كل اتجاه إلى أن لمحت رجلا بين الزحام . لمعت عينيها وانتبهت . كان الرجل يتبختر فى مشيتة ، وتتدلى مسبحة من بين أصابعه . حملقت فى جلبابه الصوفي ، وعمامته . هى

عمامة الشيخ فرحات المأذون . هي بعينها . ولو كانت لحيته أطول قليلا ، لكان وجهه هو الآخر الخالق الناطق وجه الشيخ .

لم تشعر إلا ويدها تفتح زجاج النافذة وتشير إليه . التفت إليها الرجل بدهشة . أشارت له مرة ثانية . إزدادت دهشته ونظر إليها مستطلعاً . ولما وجدها تغض بصرها فجأة وتتشاغل بالعبث في مطفأة السجائر التي أمامها ، علت بادرة دهشة على وجهه وأكمل سيره مبتعدا عنها .

أخرجت رأسها من النافذة . ظلت تتبع خطاه حتى غيبه الزحام عنها. إرتدت ببصرها ثانية إلى داخل السيارة ..

كان حسام نائما فى حجرها ، تسمرت نظراتها على أهدابه المرتخية ورقبته السمينة البيضاء .

طالما ألحت عليها أمها أن تحمل أخاها الصغير ، حتى تفرغ من كنس البيت أو غسل الأواني .

في كل مرة كانت تختلق لها عذراً ، أو تهرب من البيت . ولما طفح الكيل بها ، ضربتها بالمقشة على ظهرها وصرخت فيها قائلة « إخواتك كلهم في الغيط من الفجرية . وانتي لاشغلة ولامشغلة . والنبي لأوريكي النجوم في عز الضهر ».

اندفع الألم إلى رأسها ، وهي تتذكر وجه أمها .

غمرها إحساس كثيف بأنها نفذت تهديدها .

* * *

مضت دقائق كثيرة ، لم تطق بعدها الانتظار فنزلت ..

نزلت بهيكلها الصغير ، وعيونها لاتكف عن التلفت كعيون الفئران.

اجتاحتها الدهشة من كل جانب . لم تكن تحسب أن فاترينة المحل بها كل هذه الأشياء . مدت عنقها إلى الأمام ، وسبحت في دنيا غير الدنيا ، لولا حسام ! . خبطها في جنبها وهو نائم ، ولما التفتت إليه لمحت سيدتها في جوف المحل . ظنت أنها مقبلة عليها فزادت من إحكام ساعديها على ظهر الولد ، وبحركة غير واعية رجعت بظهرها إلى الوراء خطوتين .

وقفت برهة ترمق باب المحل ، ثم عادت بحذر إلى الفاترينة ..

تاهت حدقتاها مرة أخري في المعروضات المتناثرة بها . تعلق بصرها بواحدة . وبالثانية . والثالثة ، ثم دارت عيناها في كل إتجاه . إحتارت فى أى منها تستقر بنظراتها عليه ، واحتارت في أسمائها . استعصى عليها معرفة ولو اسم واحد منها .

ضغطت على شفتها السفلى ، وحامت ببصرها في سقف الفاترينة . وقلبها يقول : آه لو تطير نادية وتحط بجانبها الآن !! وترى معها الذي تراه.

شرد عقلها في نادية ، فخبت زهوة المعروضات في عينيها شيئاً فشيئاً ، وانسحبت نظراتها إلى المخمل القاني الذي يبطن قاعدة الفاترينة .

جاءت على خاطرها وهما يتسرسبان على أطراف أصابعهما ، ويغافلان (عم لملوم) بائع البرتقال . يخطفان فردة حذائه أو كف الميزان أو أى شئ من متعلقاته ، ويجريان وضحكاتهما العالية تختلط بنافورة الشتائم التي يلاحقهما بها .

لم يكن لها جهد على الركض . كانت تسرع بإلقاء ما تحمله حتى يكف عن مطاردتها ، أما نادية فهى أسرع منها ومنه . تطير كالريح وتختبئ بين أعواد الذرة ، تنتظرها إلي أن تجيء ، وتقفان بالساعات تلعبان وتسترجعان شتائمه وتضحكان عليها .

وفي مرة كانت تقلد صوته وهو ينادي على بضاعته . رفعت رأسها إلى السماء وأحاطته بكفيها ، ودارت بجسدها يميناً ويساراً ومطت نبراتها كما يفعل . وفي ذروة اندماجها لم تنتبه إلى قدميها ، فسقطت في حفرة مليئة بالطين .

عادت إلى البيت والأوساخ عالقة بكل ثيابها . جرت أمها خلفها بالعصا ساعتها ، وصاحت فيها ووجهها كله غيظ «مش هتبطلى شقاوة وعفرته . دي الجلابية إللي حيلتك .أنا حطيت صباعي في الشق منك».

ولولا أبوها لأكلت علقة ساخنة .

* * *

تطلعت بقلق إلى المحل ..

كانت سيدتها تقلب أشياءً براقةً في يدها وتطيل التأمل فيها . تابعتها لحظة بلحظة . ملأت عينيها من المساحيق التي تغطي وجهها ، والورود التي تزين فستانها . أحصتها واحدة بعد واحدة ، من فتحة العنق إلى أطراف الركبة .

جاءت أمها أيضا على بالها . أتت لها عارية الرأس تماماً . لاطرحة، أو حتى خرقة تحجب شعرة واحدة في رأسها ، وتختال هي الأخري بفستان قصير ومساحيق بكل الألوان . أحست بالخجل على الفور ، ولاح لها وجه أبيها وكأنه غاضب منها .

تحس بالرعشة كلما تذكرته ..

لاتزال رنة صوته باقية في أذنيها ، من بين الكلمات التي كانت تملأ البيت يوم أن جاءت إلى مصر . كان راقداً في فرشته . أراد الوقوف لتحية ممتاز أفندى الذي جاء لأخذها إلى شقة الهانم في المهندسين . بمجرد أن حاول النهوض ، هجمت علية علة الصدر . أسرعت إليه أمها بشربة ماء ، وتوقفت هي وأخواتها الست عن الحركة . ولما خفت حدة السعال ، جذبها إليه برفق . أحست بأصابعه الخشنة وهو يمس على

وجهها وأطراف عنقها ، وبأنفاسه المتقطعة وهو يتكلم .

إنحنت عليه ..

قال بصوت واهن « أنا بخير ياليلى . خلي بالك من نفسك يا بنتي»، ودس في كفها (ربع جنيه). قبلت يده ووجنتيه ، وبكت . كانت المرة الأولى التي ترى فيها وجه أبيها من هذا القرب ، وتلحظ الشعيرات البيضاء التي تكسو جوانب يده .

لم تشأ أمها أن تطول هذه اللحظات ، جففت دموعها بطرف جلبابها ، وأخذتها إلى ممتاز أفندى .

سارت معه خطوتين والتفتت وراءها ..

كانت أمها لاتزال واقفة . رأتها بعينيها وهي تمسح دمعة تعلقت بأهدابها ، وسمعتها تقول « مع السلامة يا حبة عينى » . تملكها الانفعال ساعتها . أرادت الإفلات من قبضة ممتاز أفندي ، وإلقاء نفسها في أحضانها إلا أنها كانت قد استدارات ودلفت من عتبة البيت.

* * *

سرعان ما أفاقت إلى نفسها . خافت أن تضبطها سيدتها وهي واقفة أمام المحل ، فاستدارت وأسرعت بعبور الطوار بقدر ما تسعفها خطواتها العرجاء .

فتحت باب السيارة ومددت حسام على المقعد الخلفي ، وانزوت في

شبر واحد إلى جواره . تريثت لحظات قليلة إلى أن هدأت أنفاسها ، ثم أمسكت بكتفيه ورفعت رأسه وأراحتها على فخذها . شعرت بثقل رأسه.. فدائماً تنسى أن فخذها الأيسر قليل اللحم وساقها الموصولة به رفيعة كالعصا .

قبل أن تجئ إلى مصر بيومين سمعت أباها يقول لأمها « البنت صغيرة ومش قد خدمة البيوت ».

خرجت من البيت فى هذا اليوم مع طلعة الشمس . تظل نائمة كل يوم إلى قرب الضحى . لاتصحو قبل ذلك أبداً . إلا هذا اليوم . يوم السوق .

تقوم مع طلعة النهار وتفلت من البيت قبل أن يراها أحد . تجد نادية في انتظارها ، تتسلل من خلفها وترميها بالحصى أو تفاجئها بصرخة في أذنها . ترد لها نادية الصاع صاعين ، تجذبها من شعرها أو تدفعها بكلتا يديها وتجريان إلى السوق .

ركبت المرجيحة ، ولعبت عريس وعروسة . جاء عليها الدور أن تكون عروسة ، فقال ولد « البنت العرجة دي متنفعش عروسة » . لم تترك حقها ، ظلت تهيل عليه التراب حتى دخل في عينيه وضحك الأولاد والبنات عليها وعليه .

وعندما تعبت جلست إلى جوار خالتها مبروكة . أعطتها كوزاً من الذرة المشوية ، نفخت فيه بكل عزمها . لم يسقط من يدها إلا لما قالت

لها بنبرة جادة « إسمعى الكلام ياليلى . وإياكى والشقاوة في مصر . لاأبوكى هناك ولا أمك ولاحتي نادية صحبتك . آه اصحى لنفسك ».

انسدت نفسها ساعتها ، وقامت وتركتها . لم تلتفت أو تعود إليها رغم ندائها المتكرر عليها ، وإغتاظت منها أكثر لما سمعتها تقول « والنبي لو سقتى العوج كده ما انتى نافعة ».

ولما عادت إلى البيت ، كان أبوها لايزال في فرشته وأمها إلى جواره.

دخلت على أطراف أصابعها . ومن خلف الباب سمعته يقول « على عيني مرواحها مصر وخدمتها في البيوت » . وجاءها صوت أمها قوياً وسريعاً ، وهي تقول « يا خويا جمد قلبك كده . يعني هيجرالها أيه » .

وطال الصمت بينهما ، إلى أن قال أبيها « طيب أوديها لحكيم الوحدة . يمكن يديها حاجة لرجلها . أى حاجة تصلب طولها ».

ذهبت معه في اليوم التالى . كان يمشي أمامها متوكئاً على عصا من الجريد ، وكعباه المليئان بالشقوق يطلان من مداسه العتيق . لم يتلفظ بكلمة ولم تفتح فمها هي الأخري بحرف واحد ، حتي كف يدها لم ترفعه لتحيه نادية ، التي كانت تشير لها من بعيد وتضحك .

ذهبا وعادا بلافائدة ..

كان الطبيب غائباً ، ولم يصغ (عم شحات) التومرجي لأبيها . قال

له بإشارات أصابعه وبصوته المتعجل « ياعم سليمان إنت راجل عيان ومش قد البهدلة . خد بنتك وروح ملهاش علاج عندنا ». ولما توانى أبوها في الانصراف ، انهال عليه الرجل قائلا « يا عمي دي عندها شلل أطفال . ولو أخدت ألف حقنه برضه مفيش فايدة ».

* * *

مضت دقائق انفتح بعدها باب السيارة ، وجلست الهانم في المقعد الأمامي .

قبل أن تدير المحرك ، التفتت إليها وقالت :

ـ هو سيدك حسام لسه نايم .

ـ أيوه يا ستي . نايم من ساعتها .

زفرت بحنق .

ـ بقالك عندنا يومين ولا أكتر . ولسه متعلمتيش تشيليه إزاي .

وبنبرة عالية ، أردفت .

ـ خديه يا بت على حجرك .

ماتت في جلدها وانحنت على حسام . لفت ذراعيها برفق على منكبيه وفخذيه ، ووضعته في حجرها ثم تابعت النظر أمامها . لحظة والتقت عيناها بعيني الهانم ، التى كانت تراقبها من مرآة السيارة فأسرعت بارخاء أهدابها والنظر إلى موضع قدمها .

أدارت الهانم محرك السيارة ، وهي تقول :

ـ إنتي قلتيلي بلدكم اسمها إيه ؟

ـ المنصورية ياستي .

ـ المنصورية ! فين المنصورية دي !

ردت بحماس.

ـ نص ساعة يا ستي بعربية (عم شفيق) السواق . نص ساعة بس لحد موقف الكيت كات .

هزت الهانم رأسها ، وقالت بصوت مضغوم :

ـ أيوه أيوه . خلاص خلاص .

* * *

إنطلقت السيارة ، وانبعث من المسجل صوت يصدح بنغمة لعوب . تبسمت ليلى واستطالت بعنقها إلى الأمام ، لكن سرعان ما تذكرت ما قاله لها ممتاز أفندي فهبطت برأسها . حصرت مجال بصرها فيما بين دواسة السيارة ، ومطفأة السجائر المعلقة بظهر المقعد الأمامي .

أمام مدخل العمارة التي تقطنها الهانم ، توقف وضغط بشدة علي معصمها وهو يقول محذراً « أدينا وصلنا يا ليلى حسك عينك يابت تمدي أيدك على حاجة . ولاترفعى عينك في وش الست . عينك في الأرض على طول ».

كان يتكلم ، وهي صامته ..

وأحست بروحها تتسرب منها ، مع كل خطوة تصعدها معه على الدرج.

ولما توقفا أمام باب الشقة ، أمسكت على الفور بطرف بنطاله . زغدها في صدرها ، وقال لها بنبرة عالية « نزلي إيدك جنبك يابت . هو احنا في البلد ». وقبل أن يدق على الجرس ، أشار لها بإصبع السبابة وقال « وكمان تاكلي نص بطن ».

لم ترد عليه . سقط قلبها في قدميها دفعة واحدة ، واختبأت خلفه دون أن يشعر . وعندما أطلت الهانم من الباب ، انتبه إلى مكانها وشدها من أذنها وهو يزجرها بغيظ مكتوم يقول « تعالي يا مضروبة».

تفحصتها الهانم لحظات ، وقالت « أيه إللي إنت جايبه ده يا ممتاز».

رجع خطوه إلى الوراء ، وقال بنبرة كلها جد « لا . لا يا ست هانم . إسأليني أنا . البنت دي محصلتش ولاهتتوجد تاني . وبينضرب بها المثل في الناحية بحالها . دي خدامه أباً عن جد ».

والبنت تنظر إلى شفتيه وشاربه ، ولاتدري إن كانت ماتت أم لاتزال حية.

* * *

لم تكتم فرحتها عندما صعدت السيارة على الكوبري العلوي الذي

يفصل الزمالك عن إمبابة ، إجتاحتها نسمات الهواء من كل ناحية ، وخفق قلبها ، فكأنها ترى أشياءً وأبنيةً شاهدتها عندما جاءت مع ممتاز أفندي .

لم يشأ أن يركبا الأتوبيس حتى لاتضيع منه ، سار بها في هذا الشارع الذي تراه الآن من أعلى الكوبري . نعم هذا الشارع .

فهتفت بلا وعي .

- ستي . ستي . مش الكيت كات قريبة من هنا .

- كيت كات ! كيت كات أيه يا بت !

- الكيت كات يا ستي . الكيت كات إللي فيها موقف التاكسات اللي بتودي بلدنا .

- وحشتك ! إياك وحشك الناموس والفقر والجلة والبهايم !

- أمال يا ستي . دي حبة عيني . وقالب الجلة با ستي كنت ببططه وأشيله علي رأسي وقلبي فرحان.

- كده ! طب خلاص يا فالحة .

وأردفت بضيق :

- وبعدين تقفلي بقك . الدنيا زحمة وحر ومش ناقصة وجع دماغ .

لم تفسد كلمات الهانم عليها فرحتها . ظلت عيناها تدوران وتبحثان وقلبها يقوم ويقعد ، إلى أن نزلت العربة من على الكوبري ووقفت خلف

طابور طويل من السيارات .

وفي لمح البصر كانت خارج السيارة ، تجري بأقصي عزمها والهانم تنظر إليها غير مصدقة .

تعثرت فى عربة يد محملة بالتين الشوكي . كادت أن تسقط لولا أن تعلقت بركبتي البائع . أمسك بها الرجل . رفعها بكلتا يديه ، وهو يقول بجزع :

ـ حاسبي ! حاسبي ! فيه أيه يا بنتي !

تأملت جلبابه ووجهه بنظرة خاطفة ، وقالت من خلال أنفاسها اللاهثة.

ـ والنبي يا عم . هيه الكيت كات فين .

أجابها بدهشة .

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله . مالك ! مالك يا بنتي !

مالت عليه وأمسكت بيديه ، وهى تصيح .

ـ أبوس أيدك يا عم . الكيت كات فين .

انصاع لها في الحال ، وقال وهو ينظر إلي الدمع الفالت من عينيها.

ـ خلاص خلاص . تمشي علي طول . وأول شارع شمال تلاقي في وشك موقف لعربيات الأرياف . هيه دي الكيت كات .

تركته وجرت ، وكأن عفاريت الدنيا كلها تجري من خلفها .

* * *

نشرت بجريدة الأهرام فى
٢٢ أغسطس سنة ١٩٩٧

شـــــبراوي

الرجل الجالس تحت أقدام البهيمة قلبه مهموم ، حلمات الضرع تروح وتجيء في يده ، وأوهام تجر بعضها وفراق لم يكن يحسبه قريب .

توقف طشيش اللبن وساح الوعاء على آخره ، وهو ما يزال تائها في ملكوت الله . انتبه لما تململت الجاموسة ، واستدارت محركة رأسها بنعير ممطوط . هب واقفاً على عجل وبحركة معتادة طبطب على كفل بهيمته، وملأ طوالتها بالعلف ثم التفت ناحية العجل .

كان مشهده يسر العين ، مسترخياً بجوار أمه يجتر علفته بكسل . وبين الحين والحين يثني جبهته ويطوحها في كل اتجاه ، متبرماً من حبل الرواسة الجديد(١).

نبض قلب شبراوى وهو ينظر إلي الحجاب المتدلي من رقبته . خطا خطوتين وتحسسه بيده ، وكادت أن تفلت من عينه دمعة ويبكي كالأطفال.

(١) حبل الرواسة هو الحبل الذى يعقد على جباه ورقاب الدواب لتسحب منه .

طاف بخاطره وجه أبو علوان وهو يدق عليه الباب في عز الليل بلا ميعاد . كانت ساعه ضيق والعجل بارك على الأرض ، يعاف ضرع أمه ويثني قوائمه ويفردها متوجعا بصوت مسموع .

لولا الرجل المبروك لراح العجل في شربة ماء ، وضاع حول محسوب على أصابع اليد مع طلة كل نهار .

الدار في آخر الكفر . حجرتان من الطوب اللبن ، البحرية للنوم والقبلية للخزين ، وحوش يمتلئ بخيرات الله ، عنزة وطيور من كل الأصناف وجرو صغير لايكف عن النباح . وفرن لطخ السواد فوهته ، على قبته طاجن من الفخار وأوانى من النحاس مقلوبة على فوهاتها وأجولة فارغة وفأس وباقي المستلزمات .

وفي الخارج كومة من كيزان الذرة ، ماتزال فى أغلفتها الخضراء . مزود للجاموسة وعجلها مدكوك فى الجدار على مقربة من الباب ، وسياج من أعواد الغاب ملئ بالثقوب والفتحات من جراء لعب الأولاد .

الرزق بيد الرحمن والبركة تعم البيت ، مصحف تحت الوسادة وآخر ملفوف فى حرير أخضر على رف الدولاب ، وأحجبة فى رقاب العيال ، وراديو عتيق مؤشرة ثابت على إذاعة القرآن الكريم .

وحلقة الذكر أمر واجب حتى فى أحلك الظروف ..

* * *

اجتاز شبراوي عتبه الباب مسرعاً . وضع وعاء اللبن أسفل قربة رمادية اللون ، تتدلى من عرقي خشب شدا إلى بعضهما بالحبال ، وتلفت بقلق على زوجته .

كانت فى آخر الحوش تفرك كيزان الذرة فى حجرها ، ومن حولها جمع من الدجاج يتقافز بلا صبر وكتاكيت صغار تسللت من علبة خشبية فى الجوار .

قال بدهشة :

ـ يا وقعة زى بعضها . انتى لسه قاعده عندك . يللا يللا الوقت هيسرقنا .

رفعت عينيها إليه وردت بلا مبالاة .

ـ يا خويا اصبر شويه . دا العيال لسه على لحم بطنها .

أشار لها بكفه .

ـ يللا يللا . دا أنا شايف الناس أمم أمم مشرقه .

ـ حيلك حيلك لسه بدرى وهو يعني كان من بقية أهلنا عشان نتحروس كده من صبحية ربنا .

زمجر بغضب .

ـ يا ولية يا عديمة المفهومية . يللا ارمي اللي فى حجرك وقومى .

ثم أخذ نفساً طويلا ، وقال بأسى :

ـ الله يرحمك يا أبو علوان ! الله يرحمك ! الناس مش مصدقة اللي جرى وجيالك من آخر الدنيا . اللي بيمد ! واللي بيعيط ، واللى راكب على حمار .

رمقته المرأة بطرف عينها ، وهبت واقفة على الفور .

خرجوا كلهم في رهط صغير يتقدمه شبراوي بجلباب أبيض لايرتديه إلا فى الأعياد ، ومداس أخرجه للتو من لفافته . ومن ورائه ثلاثة من العيال واحدٌ على كتفها يمسك بكسرة من البتاو ، والاثنان طار النعاس من عينيهما وبدآ فى النقار .

* * *

منذ أن وعى شبراوي على الدنيا ، وأبو علوان يجوب الشوارع والحارات . نحيف فارع الطول يطوق عنقه بمسبحة خضراء ، تتدلى شرابتها حتى آخر بطنه . وحول خصره حزام عريض من الجلد كله ثقوب ، وشال أبيض كبير يحيط برأسه وأذنيه تبرز منه طاقية أشبه بالطرطور .

ساعات يمسك بيده شمروخ كبير ، وساعات كرباج يطرقع به فى الهواء . وفى أيام ضجرة ينكفئ على وجهه ممسكاً بعود من الحطب ، وينكت فى الأرض بالساعات . وإذا اقترب منه الناس لايرفع رأسه ، وإن كلموه لايرد عليهم .

له فى كل ساعة حال . وفي كل حال كان مهيبا وله حضور الأولياء .

لم يقذفه ولدٌ مرة بطوبة ، ولا هاص فى وجهه أحدٌ ، أو مشت وراءه زفة عيال .

لايعرف من أين أتى ..

سأله مرة ، فهز رأسه ولم يجب . ألح عليه مرة ثانية ، فبان على وجهه الضيق ومن يومها كف عن السؤال .

ناس تقول تاه فى صباه من بدو يعيشون فى جوف الصحراء ، وعجائز الكفر يقولون أنه من نسل الرسول ، وأجداده الأولون أتوا من أرض الحجاز ، وناس تحلف بأغلظ الأيمان بأن له وليفة من الجان .

كان ينام فى عشة بجوار وابور الطحين ، وفي كل صبحية يفرش بضاعته ويبيع الحمص والترمس للعيال ، وساعات لعب ومساخيط . كل بضاعته كانت للصغار . ولما حلت بركاته على شيخ الكفر الحاج لملوم ، بنى له حجرة على أطراف غيطه ولم ينقطع يوماً عن مده بالزاد .

التفت شبراوي وراءه بقلق ..

كان قد ابتعد كثيراً عن زوجته والعيال . أشار لهم بغيظ ولما أقبلوا عليه مسرعين نهر المرأة الكسول ، وتوعد الولدين بالعقاب إن لم يكفا عن الشجار ، ثم عاود المسير وقلبه لايكل من الكلام .

عندما كان فى صباه ، أصيب أخوه بمرض شديد . هزال وسخونة بالليل والنهار . ولما احتار (أبو نصار) الحلاق فى أمره ونفض يديه من

العلاج ، حملوه على حمار وراحوا إلى مستشفى البندر . مكث بها ثلاثة أيام وكما ذهب عاد . ظل يعوى ليلة بأكملها ، وكان بينه وبين الموت أقدام .

وجاء الفرج على يد أبو علوان ..

من يومها تعلق به . تزوج بمشورته ، ومشى فى ركابه فى كل زيارة لأولياء الله . وساعات كان يذهب معه إلى بيوت الفلاحين وزرائب الأعيان ، فهو أدرى من كل الكفر بطباع الحيوان .

مات الرجل بلا مقدمات ..

كان خارجاً لصلاة الفجر ووقع أمام داره ، بلا أنيس ينطقه الشهادتين.

ولولت عليه امرأة عجوز ، كانت تمر مصادفة بالطريق . عويلها كان مسموعاً فى كل الكفر ويقطع القلوب ، لم تتوقف إلا لما أقبل هو والحاج للموم مسرعين وتقاطر بعدهما الناس .

وفي دقائق تبدل حال الدار . الرجل ميت . والخلق من حوله لايهمدون . من يأتي بجردل ماء ، ومن يجهز مكانا للصلاة ، ومن يجمع هدومه في صرة ويسلمها الى خادم الحاج للموم ، وطار رجل وأحضر كفناً كان يدخره لأبيه المريض.

وهو متيبس الأطراف ، يحدق حوله كالغريب . نذر خطر تلوح أمامه،

وجدار يتكيء عليه قد انهار ، وضربة فى القلب أعجزته إلا عن قول لاحول ولاقوة إلا بالله وإنا لله وإليه راجعون .

ولما رجع خلق الله إلى بيوتهم ، رجع معهم علي موعد باللقاء بعد ساعات وتركوا شيخ الجامع يقرأ على رأسه القرآن .

تنهد بصبر نافذ والتفت وراءه مرة ثانية ..

تمنى أن تكف امرأته عن الشغب مع العيال ، وتحس بضنى القلب الذى يعانيه .

ردعها بغليظ الكلام مرتين ولم تستح ، وعيال غافلون إلا عن الأكل والمزاح .. وحلقة ذكر راح قطبها وسيد المنشدين .

* * *

هل رهط الشبراوي على دار أبو علوان ..

أمم من النساء فى دوائر على التراب ، كأنه يوم السوق . ورجال من مختلف الاعمار ، وعيال وبنات في كل مكان .

أناس من الأعيان يمتطون حميراً مسرجة توقفوا بالقرب من المكان ، ومشوا بخطوات رزينة نحو دكك خشبية موضوعه بلا نظام .

رجل بفانلة ذات أكمام وسروال طويل يعمل فى غيط قريب ، ترك يد الطنبور ومال برأسه الى الأمام متطلعاً كالمشدوه.

وعربة (كارو) محملة بزكائب فول وأغمار من البرسيم ، أوقفها

صاحبها وقرأ الفاتحة ثم عاود المسير .

وكهلان يعيشان من زمن فى الخلاء ، قادمان على أول الطريق . يلبسان ملابس الدراويش ، وخلفهما كلاب لاتكف عن النباح .

وفي الأفق زرقة تريح العين ونور رباني آخاذ ..

انحرفت إمرأة الشبراوي في صمت صوب الحريم ، وانخرط الولدان فى زمرة العيال ، ومضى هو بخطوات ثقيلة الى الدكة التي يتربع عليها الحاج لملوم .

إتكأ بيده على مسند الدكة ، ووقف صامتا .

رفع الحاج لملوم رأسه بدهشة .

ـ عايز أيه يا شبراوي .

رجع بظهره خطوتين الى الوراء ، وتوترت ملامح وجهه فصاح فيه :

ـ جرى أيه يا وله . عايز أيه !

نطق بصوت خفيض :

ـ عم الحاج ليه طلب عندك . حبيبك النبى ما تكسفني .

ثم تنحنح ، وتابع الكلام وشفتاه ترتعشان .

ـ كت عايز أبو علوان يندفن فى التربة بتاعتنا .

نظر إليه الحاج لملوم باستغراب .

ـ بتقول أيه يا شبراوي !

ـ أيوه يندفن عندنا فى التربه بتاعتنا . دا الطلب اللى بترجاه منك .

ـ كان على عيني يا شبراوي . أبو علوان فى كفالتى حى ولاميت دا عهد خدته على نفسي .

اقترب خطوة من الدكة وقال بصوت مأزوم :

ـ والنبى يا حاج دا أنت أول العارفين باللى بيني وبينه .

ـ هيندفن عندى يا شبراوي . وأنا بعت الواد محمدى خلاص عشان يفتح تربة العيلة .

وما كاد شبراوي يهم بالكلام ، حتى رمقه الحاج للوم بنظرة تنبئ بأن هذا الأمر ليس فيه فصال . وأشاح أحد الأعيان فى وجهه ، قائلا بضجر:

ـ سيب عمك الحاج فى حاله ويللا يللا بلاش وجع دماغ .

* * *

انتحى شبراوي جانبا ، والحاج للوم والأعيان يبتسمون .

تكوم على بعضه وجلس على التراب ، وسرحت عيناه . مأذنه الجامع كانت تلوح أمامه من بعيد ، وسحب صغيرة انزوت بجوار بعضها فى أطراف السماء ..

تذكر أباه وأخاه ووهدان جاره فى حد الغيط وكل من مات . خيل إليه أنه جالس أمام ربه ساعة الحساب . والملائكة . والميزان . وهول

اليوم العظيم . وتاهت دنياه فى آخرته ، وكادت أن تنفتح عيناه على بكاء ونحيب .

عض على شفتيه من الأسى وعيناه المحتقنتان تطلان على الناس باكتئاب . الجالسون على الدكك يتسامرون . والرجل الذي يصب الشاى للحاج لملوم . ونساء لايتوقفن عن الكلام . وحماران من حمير الأعيان مشتبكان فى عراك ، ولايكفان عن تبادل الركلات . والرجل الصالح انعتق من الدنيا ، وغاب فى الأفق الربانى البعيد ..

جاءا من سفر منذ أيام . ضريح بعيد ، وخلق تعرف كرامات الأولياء. أفسح لهما الناس هناك المكان ، وأجلسوه هو الآخر بجوار صاحب المولد إكراماً لأبو علوان .

في آخر الليل وبعد ان انصرفت النساء والأولاد ، حلفوا بالله على الرجل أن يجلس على دكة الانشاد . تربع وفرد ذراعيه وبان فى وجهه الصلاح . ظل ينشد ويذكر الله ويلون المديح ويطيل فيه ويعيد ، والرجال تتمايل وتهيم ، وحب أهل البيت يفلق القلوب ويجلجل فى السماء .

مكثا يومين من دار الى دار . أحجبة وأسرار . ومباخر وألغاز وجلوس فى حضرة مشايخ وأصحاب كرامات .

صحبة كلها ثواب ، وتحدثا وهما عائدان عن ميعاد جديد عند سيدى إبراهيم .

تنهد شبراوي بقلب موجوع ، وأتبع تنهيدته بهزة رأس واستغفار الله العظيم .

كانت زوجته على مقربة منه . صوتها بخرق طبلة أذنه ، وهي تحكى لجاراتها عن عفرتة العيال وطيورها التى ضاعت عليها وجبة الصباح . نظر إليها بصدر ضيق وعينين يملؤهما غيظ مكتوم ، ولولا رهبة المقام لقذفها بحجر أو قام وأهال على رأسها التراب .

أطل شيخ الجامع وقال بصوت أخاذ :

ـ وحدوه . وحدوه . إنا لله وإليه راجعون .

ولاح من ورائه النعش ، مغطى بلحاف قديم ويحمله أربعه رجال . طأطأ الخلق رؤوسهم وهبوا كلهم واقفين . أسدلت طلة الموت رهبة على المكان ، فانقطع ضجيج الأطفال وحملقت أعينهم بوجوم ، وانحبس الكلام وبدأ دبيب الأقدام .

مشى الرجال بالنعش عدة خطوات ، وسرعان ما التحم طابور الناس. كان الحاج لملوم يسير فى المقدمة هو والأعيان ، عاقدين أيديهم أمام بطونهم وصامتين ، ومن ورائهما شيخ الجامع يختلس النظر الى الدرويشين . وعادت النساء الى الأرض ، وبدأ الكلام من جديد ، وتسلل عيال الي الصفوف ومشوا بجوار الرجال .

وما كادت الجنازة تسير عدة أمتار فى طريق مترب بين الحقول ، حتى

اختـرق شبـراوي الصـفـوف ودفـع الرجل الذى يحـمل ذراع النعش من الأمـام . ووضع الذراع عـلى كتـفـه هو ، ودق قلبـه واستـمـات ، وأخذته نفحة لاتجئ إلا فى ذرى الأذكار .

رمـقـه الحـاج لملوم بنظرة من نار ، فلم يأبه لـه واستـمـر قـابضـاً على الذراع بيد من حديد . وشيئاً فشيئاً تملكتـه الجلالة ، وأطاح برأسـه يميناً ويساراً كالمجاذيب وتاه فى دنيا غير دنيا الناس .

اقـتـرب منه رجلٌ بايمائه من الحـاج لملوم ووضع يده على الذراع ، فجحظت عينا شبراوي فى الحال ودفعـه بمرفقه دفـعة أوقعتـه على الأرض بين دهشـة الناس . خطا بعـدها خطوة واحدة ولم يقـدر . خـيل إليـه أن الدنيـا كلها تجثـم على كتـفـه ، وصـاحب النعش ـ أبو علوان ـ يأبى المسير ويأمره بالوقوف . فشاطت فيه النار ، واكتساه عرق غزير .

زعق بأعلى صوته :

ـ وقف عندك . وقف ! الخشبة تقيلة يا ناس .

وأردف بصوت ممطوط وكله بكاء .

ـ مدد . مدد . أبو علوان مش عايز يمشي . أبو علوان زعلان.

التـفت اليـه مـذعوراً الرجل الذى على يسـاره ، وأناخ كتـفـه هو الآخر وصاح :

ـ صحيح . صحيح والله ! الحقونا يا ناس ! الحقونا يا ناس !

وامتثل الرجلان الآخران . انبطوا كلهم مرة واحدة ، وهبط النعش علي الأرض والتف حوله الناس .

قلبَ الحاج لملوم كفيه ، وابتعد هو والاعيان عن الزحام . وغاضت الدماء من وجه رجل عجوز ، وهاج فى الناس بأعلى صوته :

ـ الله أكبر . الله أكبر . طلباتك أيه يا أبو علوان ! طلباتك أيه !

ودار بعينيه فى الخلق الواجمين ، وهو مستمر فى الصياح .

ـ شوفوا حل يا ناس ! شوفوا حل !

وانفلت أحد الدرويشين من الزحام ، وانثنى على النعش يكلم أبو علوان.

ـ أنا دارى بكراماتك من زمان ! دارى بيها والله وكنت عارف انك هتعملها !

وشبراوى القابض على ذراع النعش ، يحملق فى الدرويش برهبة وعيناه غائمتان.

التفت الدرويش بعدها الى الناس ، ورفع ذراعه فى السماء .

ـ شاهدين ! شاهدين يا ناس !

فتعالت الصرخات فى نفس واحد :

ـ شهدنا لك يا أبو علوان ! شهدنا لك ! الخلق كلها شاهده ! شهدنا لك والله .

واقتربت النساء واختلطن بالرجال ، والكل عينيه على الحاج لملوم . فصاح الرجل كالمأخود.

ـ والعمل ؟

أسرع اليه الدرويش الآخر ، أمسك بكم جلبابه وقال .

ـ دا ولي من أولياء الله . والولى يندفن مطرحه يا سيد الناس .

ثم رفع يده فى الهوا مخاطبا الناس .

ـ أنا قلت وبلغت وخالى مسئوليه لحد يوم الدين .

وصاح شبراوى بأعلى صوته ، وذراعيه فى السماء .

ـ يسلم فمك يا سيدنا الشيخ . يسلم فمك . يللا يا ناس الحكاية بانت خلاص .

وقف الحاج لملوم حائراً ، وانسل الخلق من حوله مسرعين . خطفوا النعش وعادوا به الى الدار . ودارت الفؤوس ، وأحضر بعض الرجال تراباً وجرادل ماء ، وتعالى الصياح والتكبير .

وبعد أن سدوا شبابيك الدار والباب بالطين وقوالب الطوب ، نادى الدرويشان على ذكر الله ، فتشابكت الأيدى وتمايل الرجال وهبت النساء مولولة بزغاريد تصم الآذان ، والعيون كلها على ضريح أبو علوان .

* * *

يوليو ١٩٩٧

البقية فى حياتك

سبقني لساني وأنا أحملق فى الرجل الملقى على الأرض ، صحت بصوت كالهتاف :

- يا خبر إسود! دا المستشار محمد الراعي !

رمقني الناس فى نفس واحد . تاهت عيناى أنا الآخر فيهم لحظة أو لحظتين ولم أقدر بعدها على النطق بكلمة ، أو النظر فى وجه أحد . وبحركة غير واعية تراجعت الى الوراء ، حتى كدت أتعثر فى صندوق قمامة يقف بين الناس .

أفلتت ضحكة من بين الزحام . ضحكة ثانية . أظنهما عليّ . طق الدم فى رأسي ، وأنا أميل ببدني كله على الصندوق . ضغطت بكلتا يديَّ على فوهته وشيئا فشيئاً استعدت توازني ، واستدرت وأنا ألهث .

لاتزال العيون تحدق فيّ ، تشاغلت عنها بالانثناء على الأرض .

كان الرجل ممدداً على ظهره . قدمه اليمني بلا فردة حذاء . انحسر

طرف بنطاله ، وتعرت ساقه إلى منتصف السمانة . ساعة يده لاتزال عالقة بمعصمه ، إطارها الزجاجي هو الذى تهشم . شاربه الأبيض الكث تهدل وارتخت أطرافه تماماً .

أناس كثيرون من حوله . كبار وصغار . سمان ونحاف . طوال وقصار . إثنين أو ثلاثة منهم بالكاد ، وجوههم متجهمة . بشر غيرهم يملأون النوافذ والشرفات . كلهم من النساء . عيونهن غاربة تنجذب إليها رغما عنك . عربات تقلل من سرعتها بالقرب من حافة الطوار . يطل أصحابها علينا ، ثم تخرُج ريحها فى وجوهنا وتنطلق . أبواق كالمسامير آتيه من قريب ومن بعيد ، وفى الجو غمامة تمر فوق رؤوسنا دون أن يلحظها أحد .

دسست يدى فى جيبي ، وأخرجت منديلا ورقيا . واذا بعينيّ تلمحان رجلاً يتبعني بنظراته . كان منثنياً على ركبتيه مثلى ، وفى يده زجاجة ماء غازية يشرب منها على مهل . انخطف قلبى وأنا أنظر الى وجهه المستطيل ، وسوالفه التى تتجاوز منتصف الصدغين . الذى أخافنى منه أكثر وأكثر نظرة عينيه .

أشحت ببصرى عنه ، تشاغلت بإزالة بقايا سلسال الدم المنساب على جبين المستشار الراعي .

قلبه يدق بعنف ، لم أكن أعرف ساعتها أن الدق منبعث منى .

اقتربت منه لأسمع أنفاسه . خيل لى فى أول الأمر أنه لا أنفاس فيه . وأحسست لحظتها بحبات عرق كثيرة على وجهى ، شعرت بملوحتها لما لمست شفتّي .

استبد بى القلق لما وجدت أفواه الناس التى تحيط بنا مزمومة . لايهمسون حتى بكلمة . لايتحركون . وجوههم نُحتَت من حجر صوان . جامدة . مصمتة . عيونهم لابريق فيها . حتى العربات تسير ببطء شديد ، وبلا أزيز أو أبواق .

سكتت فيّ الحياة أنا الآخر . جفناي فقط هما اللذان كانا يطرفان . ظللت ساكتا الى أن باغتني الرجل المنثني على ركبتيه . ألقى بالزجاجة من يده . صوتها كريه . يخرق طبلة الأذن . أخذت تتدحرج حتى لامست أقدامي ، وبدأ السائل المتبقي فيها يتساقط قطرة بعد قطرة على مقدمة حذائي والناس كلهم ينظرون .

سألنى بعدها ، بصوت متهكم .

ـ هو الأستاذ ولامؤاخذه دكتور . ولا أيه حكايته بالظبط .

عندما تكلم عاد الناس فى الحال الى الحركة والضجيج . ابتسامته غريبة . غامضة . لاأعرف . ربما الاثنين معاً . حاول مداراتها عني ، لكنها أفلتت منه ، استقرت على زاوية فمه دون أن يدري .

تمالكت نفسى . أجبته بالنفى . أشاح لى بظاهر كفه ، ثم قطب جبينه

وأردف بنبرة تشي برغبة أكيدة فى العراك .

ـ طيب يا عم وسع كده . خدلك جنب . يللا يللا خلى الراجل ياخد نفسه .

واستدار بوجهه نحوي ، منتظراً ما الذى سوف أفعله . لسعات عينيه كالأشواك . جيوش النحل بدأت الزن فى رأسى . أمسكت بزمام نفسي مرة ثانية . أدرت له ظهرى . احتميت فى المستشار الراعي .

الأنفاس ضعيفة . لاتكاد تسمع . آثار أظافر بأسفل شحمة أذنه اليسري . شفتاه في لون الرماد . الذى أقلقنى عيناه المسبلتان .كأن ملك الموت حاضر بيننا ، وبدأ في النقر على جبينه . وفى عز القلق واتتنى الدهشة ، أو هكذا تخيلت . فلا تزال الدماء تتقطر من فتحتي الأنف ، رغم أن الوجه ممتقع ولا دماء فيه .

التفت حولى مستغيثا . لم يحفل بى أحد . وشوشة ولغط وزياط. سراويل غريبة يرتديها الناس ! طراز عجيب من ألبسة الرأس ! أهذا الذى كنت أراه قبل لحظات ! لعلى لم ألحظ . رفعت رأسى لأرى ملابس النساء ، ففوجئت بأن النوافذ والشرفات كلها مغلقة (بالشيش والزجاج) ولا أحد يطل علينا .

أناس آخرون يهلون علينا من كل ناحية . يلبسون نفس السراويل . لفحات الهواء تثقب العظام ، ولايشعرون بشيء . السراويل ملساء.

خفيفة . شفافة . ألبستهم الداخلية ظاهرة من خلفها . أنوفهم متورمة . حمراء فى لون الدم . بعضهم يرمقنى بنظرات مريبة . وأناس يتبسمون فى وجهى وعيونهم كلها رثاء . وجوه أخرى تتحرك نحوى . تبتعد وتقترب . ضحكات تتطاير على الأفواه . يبدون كلهم سعداء . أمعنت النظر فيهم وكلي دهشة . وخوف . حسبت أنهم سوف ينقضون عليّ ، لكن شيئاً قال لى : لاتخف ، فلا ضرر منهم .

* * *

لايزال الزن مستمراً فى رأسي . أعافر لكى أتحمله . والرجل المنثني على ركبتيه ، لاتزال عيناه عليّ . انتبهت له وهو يقترب . هزتنى رعشة كهربائية فى الحال . كان على بعد ذراعين مني . بينه وبينى الآن مسافة إصبعين ، ويزغدنى بمرفقه لأخلى له المكان .

حامت فى بالى على الفور فكرة مجنونة ، أن أتمدد أنا الآخر إلى جوار المستشار الراعي . أتمدد وأغمض عينيّ . أخبط بيدي وأزعق بأعلى صوتي كما كنت أفعل من قبل . أعجبتني الفكرة ، لكن شيئاً فى رأسي ظل يقاوم ، وهى تدور وتلح . كدت استسلم لها . لم ينقذنى إلا نصائح الأطباء .

تذكرت كلامهم وأصابعهم المحذرة ، ووجه زوجتى المليء بالقلق . انتفضت واقفا ، قبل أن أدخل فى حلم من أحلامي الثقيلة . أخرجت

منديلا ورقيا آخر . احترت . ماذا أفعل به . أين حبة الدواء .. وضعتها فى جيبى قبل أن أخرج .. لا .. لم أفعل .. سهوت وتركتها على حافة الكومدينو . تكور المنديل بين أصابعي . اختلط بالعرق السائح فى راحة يدى . ألقيته . هممت بالابتعاد ، وكأنى لم أسمع صوت الرجل الطويل الرفيع الواقف الى جانبى ، وهو يشير إليّ ويقول :

ـ لاحول الله يارب ! الراجل مرمي على الرصيف بقاله ساعة . إنت تعرفه يا أستاذ .

لم أنطق بكلمة . اقترب منه ممتاز أفندى صاحب نادى الفيديو الملاصق لعمارتنا . أزاح الملعون غطاء رأسه قليلا إلى الوراء ، وقال له هازئا :

ـ بيقول مستشار . مستشار مين ويتاع مين . دا راجل على المعاش بقاله سنين .

ثم ضم شفتيه وأخرج من بينهما صوتا ممطوطا مقززا ، وأردف صائحا.

ـ ميسيب كل حى فى حاله . هو احنا ناقصينه . دا اللي زيه ماتوا وشبعوا موت من زمان .

وأمسك بيد غلام كان يثرثر معه من قبل ، قال له بتصميم وانفعال ظاهرين .

ـ البت لها مزاج من الواد بس تقلانه عليه . ماله هو ! يستاهل بقه اللي جراله !

تدافع بعض الغلمان حول ممتاز أفندى . سراويلهم فاقعة . حمراء . صفراء . زرقاء . الكل يريد أن يتكلم معه . ظللت أتابعه الى أن فرغ من الحديث ، تمخط بعدها بأقصى عزمه وألقى ببصقة بالقرب منى. التفت اليه بحنق ، وددت لو كانت معى مطواة أرشقها فى عنقه أو ألكمه فى أسنانه .

* * *

ابتعدت خطوات عن الزحام ، وكلمات الأستاذ شكرى ـ صاحب المكتبة التى فى أسفل عمارتنا ـ ترن فى أذنى « يا سلام على سيادة المستشار دا راجل محترم بصحيح . آه لو منه اتنين تلاته فى الشارع بتاعنا ».

آخر مرة رأيته فيها كنا على هذا الطوار . كان يتباطئ فى السير مع عجوز خائر تجاوز الثمانين بكثير . يقبض بحرص على أطراف منكبيه ، كأنما يخشى عليه من الأكتاف المسنونة التى تملأ شارعنا.

التقت نظراتنا فحيانى بابتسامته التى لاتنسى أبداً ، وبادرنى قائلاً: « داعم مرزوق صاحب كشك السجاير اللى فى أول الشارع من ناحية قصر القبة . الأبالسه واخدين الكشك منه وطاردينة فى الشارع ».

ثم قلب عينيه إلى أعلى ، وتابع بنبرة قاطعة « أنا رايح أتفاهم معاهم بالحسنى أولا . إن مسمعوش الكلام فيه نيابة ومحاكم . لسانهم طويل ولا أخلاقهم زفت لازم أشوف حل للراجل ده ».

ولما التقيت بالأستاذ شكري فى المساء ، وحكيت له عما دار بيننا بدا عليه الضيق الشديد ، وقال « أنا قلت له ملكش دعوه بالناس دي . إنت مش قدهم . وبرضه مفيش فايدة ».

ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع بأسى « هو صحيح راجل محترم . وله هيبته عند الناس . وفى السما كمان ».

ولم يكمل ، انشغل عنى بأولاد كثيرين دخلوا علينا المكتبة فجأة .

* * *

اقترب منى ثلاثة غلمان يرتدون قمصانا على اللحم .نفخ واحداً منهم دخان سيجارته فى وجهي ، ثم سألنى عما حدث . عيناه ناعستان ولسانه ثقيل . لم أجبه بكلمة . أخذت أنظر فى الجمجمة المعدنية التى يتمنطق بها . أحسست بضحكة تكاد تنفجر على فمه ، ولمحت رفيقيه يغمزان له وأعينهم عليّ . التفت الغلمان الى بعضهم البعض ، وابتعدوا وهم يتهامسون . سرعان ما استدار اليّ أحدهم برأسه ، وجدنى أحملق فى أقفيتهم أنا الآخر .

ظللت واقفاً إلى أن ازداد الضجيج فجأة ، وسمعت رجالا كباراً

وأولاداً يهللون ويصيحون بأصوات عابثة .

- وسع وسع . عربية الاسعاف جت .

قفز رجلان من مؤخرتها يحملان محفة . كانا يبتسمان . بالفعل كانا يبتسمان للرجل المنثني على ركبتيه . هب واقفا لما رآهما . بدا لى مفتول العضل وعنقه أغلظ مما كنت أظن . تعجبت من خلقته . عنقه غليظ ووجهه رفيع ، جسده كبير وجمجمته صغيرة .

اقترب منه رجلا الاسعاف . سلماه المحفة .

كان يتكلم وهما صامتان ، واختفت تماما الابتسامة التى كانت فى زاوية فمه . لكن أنفه لاتزال متورمة ، رغم أن أنوف الناس عادت الى هيئتها الأولى ، وتبدلت أشياءُ أخرى فى ملامح وجهه . نظرة عينيه هى التى بقت على حالها .

أحسست بأنى مريض . دخلت بالفعل فى حلم كئيب . قلت لنفسي لامخرج إلا العودة الى حجرة نومي . أتمدد على الفراش . أعبث فى مؤشر الراديو . أقرأ شيئاً . غير أنى لم أفعل ، تراجعت فقط الى الوراء، واستندت الى جدار قريب .

منذ متى . منذ شهر . لا بل من اسبوع واحد كان المستشار الراعي يستوقف عربة أجرة . إلتفت إلى عم سليمان البواب وهو يسجل رقم العربة على راحة يده ، وبدر منى ما يشبه الدهشة . فقال لي على الفور

«صلى على النبى الراجل بركة والحذر واجب ».

ابتسم الأستاذ شكرى وقتها ، وقال لى « دا راجل داخل على الثمانين وأنا قلت له بلاش بهدلة وخليك أحسن . قال لي : إزاي لازم أروح بنفسي . دا زى ابنى ».

وسكت .

حدجت فيه ساعتها مستفسرا ، مط شفته السفلى قليلا وقال بصوت مهموم « أصل الأستاذ عمر . » ، تنهد بعدها وقال « الأستاذ عمر السلاوى ما انت عارفه . الأستاذ عمر أبو دقن اللى بيصلى معانا فى جامع الشيخ كشك ».

هززت رأسى له مؤكداً ، لكنه توقف . انحرفت نحونا سيارة مسرعة، وركضنا كلنا هنا وهناك . انشغلنا بأرواحنا . نسينا ما كنا نتحدث فيه.

أفقت من السرحان على زعيق الأستاذ شكرى ..

كانت يداه تدفعان الناس ، وحبات عرق كثيرة تلمع على وجهه ، ومن خلفه عم سليمان يتوكأ على عصاه . قفز الرجل مرة واحدة فى مؤخرة سيارة الاسعاف . لا أعرف كيف فعلها بجسده السمين ، وقلبه الذى يعمل بنصف طاقته . حاول عم سليمان هو الآخر ، فسقط على الأرض . أخذ يسب ويلعن بلكنته النوبية ، ويصيح فى الناس لتهمَّ بمساعدته . وحمله ـ بالفعل ـ بعض الرجال على أكتافهم ، ومن ورائهم

ضحكات تجلجل في السماء ، وأصوات كثيرة تصيح بأعلى ما فيها .

- هيلاهوب . هيلا هوب .

دفعوه دفعاً فى مؤخرة السيارة . انضم إلى الأستاذ شكرى ، يعافران معا رجل الاسعاف الذى استمات أمام الباب الخلفى . وعلا الضجيج ، وضحكات الناس . وازداد نهجان الأستاذ شكرى .

انبح صوته فجأة ، وهو يصيح فى رجل الاسعاف :

- حيلك حيلك ! أسيبه ازاى ! وسع وسع ربنا يهديك .

رجل الاسعاف لايزال صامداً . عيناه تتابعان شيئاً في الزحام . انطلقت نظراتى نحو مرمى بصره فلمحت الرجل الذى كان مثنيا على ركبتيه . أشار له بكفه وتوارى بعيداً . خفت قبضة رجل الاسعاف من على الباب . مرق الرجلان . انطلقت السيارة ، وأنا أنظر كالمذهول .

لملمت نفسى وأقتربت من رجل أشيب ، سألته عما حدث .

تجهم وجهه قليلاً ، لكنه قال بصوت محايد .

- والله يا أستاذ أنا مشفتش حاجه بعيني . بيقولوا إن فيه ولد ..

توقف بعدها لحظات ، وأكمل بعصبية ظاهرة .

- ولد صايع كان عمال يعاكس بنت وقل أدبه خالص . فلما الراجل ..

قطعت علينا الحديث إمرأة مكتنزة ترتدى جلبابا أسوداً . قالت لى :

- يا خويا أنا شفت بعيني . الراجل الكبير بتاع الدفاع المدنى قال له

مرتين تلاتة عيب يا بني دى زى أختك وبرضه مفيش فايدة . قام قال له إنت ولد مش متربى .

ثم أخذت نفسا طويلاً ، وتابعت الكلام :

ـ مين يا خويا اللى قال .

أجبتها بتلقائية .

ـ الراجل الكبير .

ـ أيوه يا خويا عليك نور . راح الواد قليل الأدب ضاربة فى وشه وزقه كمان على الأرض . الراجل يا عيني معدوم العافيه . وقع على طول ومحطش منطق .

اندست فى وسطنا إمرأة نحيلة ، ترتدى جلبابا غامقاً هى الأخرى . قالت موجهة الحديث للمرأة الأولى ، وأنا والرجل الأشيب صامتان .

ـ دفاع مدنى أيه يا أختى . لاهو إنتي مش عارفاه .

وانتحيا جانبا يتكلمان .

* * *

انصرف أكثر الناس . لم يبق الا القليل . سمعت واحداً منهم يقول :

ـ لأه فيه النفس . أنا شفته وهو بيغمض ويفتح عينه .

أجابه آخر :

ـ كلامك صحيح . أصله ممنوع على الاسعاف تشيل حد ميت .

إنتبهت إلي إمرأه عجوز ترتدى ملابس الحداد ، وهى تقول لرجل بالقرب منها :

ـ دا محدش جه من الحكومة لغاية دلوقتى . مش غريبة دى .

كان الرجل مستنداً إلى الحائط ، ويمسك بصحيفة فى يده . لمحته وهو يهز رأسه وينظر باهتمام الى صورة بصدر الصحيفة ، لرجال كبار عيونهم كلها غبطة ويتبادلون الابتسام .

سألته المرأة مرة ثانية .

أجابها بنبرة ضاحكة .

ـ يا ماما صباح الخير ما غريب الا الشيطان .

ومر من أمامى رجل وامرأة . المرأة في شهرها التاسع . ترتدى ثوباً أبيضاً فضفاضاً . إن صدق ظنى سوف تلد خلال أيام ، إن لم يكن ساعات . ضبطنى زوجها وأنا أحملق فى بطنها المتكورة .

اقترب منى والشرر يتطاير من عينيه . لم أعبأ به . تحجرت ملامح وجهي على بطن المرأة وازدادت نظراتى جموداً ، فأمسك الرجل على الفور بيد زوجته وأسرعا بعيداً وأنا ألاحق المرأة بعينيّ .

* * *

أبريل ١٩٩٧

شــئ حــدث

اختطفه النوم في لحظة واحدة ..

انتابه خدر في أول الأمر . تراخت أهدابه ، وشيئاً فشيئاً خبت نظراته . بالكاد لمح برصاً يطل برأسه من شق كبير في السقف ، ويعدو مسرعاً نحو الجدار . ظلت عيناه عليه ، إلى أن اختبأ في فجوة لاتبعد عن رأسه سوى متر واحد .

أصابته رجفة خفيفة . خشي أن يخرج هذا الملعون من مكمنه ويسقط عليه ، مثلما سقط واحدٌ مثله على وجه أخته الصغيرة نادية وهي نائمة فظلت تبكي الليل بطوله . لكن رأسه هو ، هي التي سقطت على حافة الدكة الخشبية . سندها بحركة غير واعية ، ووضع كفه أسفل منها وسرعان ما انساب اللعاب من بين شفتيه .

وفي لمح البصر توغل به النوم إلى أقصى القرار . أصبح في واد ، وصياح وصراخ الأولاد من حوله في واد آخر .

لاح له من بعيد رجلٌ مقلوب السحنة ، يمتطي فرسة خشبية صغيرة . اقترب منه . أحس برعشة لما رآه ينتعل مداس أمه . طقت الدهشة في كل عروقه عندما وجد الرجل ينهال على رأس الفرسة بعصا حديدية ، ويحثها على السير بنبرة صوته الغليظة . الصوت ليس غريباً عنه . والفرسة لاتتحرك . أحس بالخوف لما نظر الرجل إليه ، ولولا الملفعة التي تخفي جانباً من وجهه لعرفه على الفور .

الذي أثار حيرته طول الحلم أن هذا الصوت ليس صوت الرجل الذي يراه . لرجل غيره . أحرف إسمه تتشابك على طرف لسانه ، ويكاد يعرفه هو الآخر .

* * *

ظل جسده مقوساً على المقعد ، ورأسه ساقطة على حافة (التختة). لم يشعر بأن الجلبة التي كانت ترج الفصل قبل قليل قد خمدت تماماً ، وأن أقدام الاستاذ حنفي تقترب منه بحذر ممتع .

لم ينتبه إلا على لكزات غير آدمية تنبش فى ظهره .

قتلته المفاجئة ..

كان الأستاذ حنفى واقفا أمامه ، يحملق فيه من أعلى ويحك شاربه الوحشي بأصابعه الكبيرة .

تاهت عيناه فى وجه الاستاذ ولم تسعفه يداه فى توقى اللطمه المتقنة

التى هوى بها على صدغه ، كضربة فأس عفية فى أرض رخوة .

اقتحم الطنين رأسه . تيبست كل أطرافه ، حتى لعابه لم يستطع الإفلات من حنجرته المنقبضة . عيناه فقط هي التي دارت في كل إتجاه، والأولاد ـ من حوله ـ يرمقونه بعيون كعيون الفئران .

مضت دقيقتان أو ثلاث ، وهو لايزال واقعا فى أسر الأستاذ حنفي . تأتيه اللطمات من كفيه الكبيرين كخفي الجمل ويسبح في الرذاذ والشتائم المنهمرة من فمه ، إلى أن جاء الفرج على يد الأولاد . أفلتت ضحكة ، تلاها على الفور ضحكات وهمهمات وانقلب الفصل إلى فوضى ولغط أشبه بلغط الدجاج .

عندئذ فقط انصرف عنه الأستاذ ، سحب عصا من أحد الأركان ولوح لهم بها . غير أن الضحكات ظلت تتفجر في الأفواه ، خاصة من محمود. رآه بعينيه الاثنتين يتغامز عليه ، ويشهق بضحكات اهتز لها جسده السمين من رأسه حتى أظافر قدميه .

ولحظة بعد لحظة استتب النظام ، وعاد إليه الأستاذ . أمسك بياقة مريلته . هزه منها وقال والغضب يشع من عينيه :

ـ وكمان عينك حمرة يا جحش ! اسمك ايه .

أحس بقطرة بول تبلل سرواله ، وهو يرد عليه بصوت خافت :

ـ أحمد . أحمد مرسي عبد الدايم .

ـ من أول يوم في المدرسة وجاى تنام يا ابن الأبالسة .

توقف الأستاذ لحظات قليلة ، ثم أردف :

ـ ولد . مش أنت ابن مرسي كلاف المواشي .

ـ . . . .

لم ينبس بكلمة . أحنى رأسه . هربت به عيناه إلى التضاريس الخشنة لسطح (التختـه) . أطال النظر فيها . لمس بأصابع يده اليسرى المسامير النابتة عليها ، ثم تركز بصره على كفه الأيمن الملقى على حافتها . أحس بالحنق ، لما لمحت عيناه كف جاره عثمان . لم يكن يحسب أنه كبير ومفلطح إلى هذا الحد . إن تناوشا أو إشتبكا في معركة ، فالغلبة لعثمان ولاشك . . تبسم بغل لما حك بأظافره باطن إبهامه . لاتزال هي الأطول . والأشرس ، وسوف يسيل بها الدماء في أي عراك .

حدق فيه الأستاذ متعجبا عندما رآه يتبسم ، ثم نظر إلى أكمام مريلته القصيرة وصاح :

ـ ما ترد يا قليل الحيا . هو أنت ابن مرسي عبدالدايم ولا لأه .

ـ . . . . .

ـ مش عايز ترد يا تربية الزرايب . طيب استنى عليه لما أشوف حضرة الناظر .

ولما لم يجب ولو بحرف واحد تنحنح الأستاذ حنفي ، ثم زغده مرتين فى كتفه وانصرف وهو يتمتم بشتائم وكلمات قبيحة .

بقى صامتا طيلة اليوم . يناوشه النوم ، وهو يأبى التسليم . الخوف من أن يباغته أحد المدرسين وهو نائم سُرب إليه بعض الطاقة . ظلت عيناه ترقبان خطوات المدرسين بحذر ، وتختلس النظر مرة إلى مكمن البرص ومرات إلي حقائب الأولاد .

وعندما دق جرس الانصراف ظل جالساً على مقعده يتابع الأولاد بنظرات ساهمة ، كانوا يصرخون في نفس واحد ويقلدون أصوات الحيوانات ويتضاربون على باب الفصل . ولما خرجوا كلهم امتدت يده إلى كتب الصف الثالث الابتدائي التي تسلمها في الحصة الأخيرة ، طواها ووضعها في حقيبتة الكبيرة البالية .

قفز من الفرحة هو الآخر مثلهم ، بل أكثر - بكثير - منهم لما فاجئته أمه بالحقيبة ليلة أمس . جلس على الأرض يعد جيوبها واحداً بعد الآخر. ستة جيوب . منها جيبان لهما أقفال ومفاتيح .

غير أن فرحته تسممت في الصباح ، عندما إلتقى بمحمود ورآه يضحك ملء شدقيه ويشير إليها ويقول « إيه البتاعه الجربانه دي . دي عاملة زي خرج العطار ».

واسودت الدنيا في عينيه لما هرش هذا الولد اللئيم رأسه ، وقال له ويقينه يغلب على شكه « مش دي الشنطة القديمة بتاعة ابن العمدة ! آه هيه ».

إغتاظ من نفسه ، ومن أمه . حدثته نفسه ساعتها أن يتعارك مع محمود . تمنى لو يضربه بحجر أو يفلق رأسه بفرع شجرة .

* * *

خرج الأولاد من المدرسة ، وهو في اثرهم . شقت قدماه الطريق الترابي المحاذي للترعة ، وإلى جواره محمود يهتز ويضحك ويلهو بالحصى .

اقتربا من بيت كبير ، ذي طلاء فاقع وشرفة واسعة يحده من الأمام سور عال تتوسطه بوابة حديدية مرتفعة . توقفت خطواتهما قبالة البيت. زفر بصوت مسموع وهم بقول شئ ، لكن محمود لم يلحظ وأشار له بظهر كفه محيياً ثم اتجه مسرعاً نحو البوابة . دفعها بكلتا يديه ، وفي ثانية واحدة كان قد اخترقها واختفى .

وبقي هو واقفا ، يستمع إلى صرير البوابة الغليظ وهي تعود إلى أدراجها . منذ زمن ونفسه تتوق لرؤية بيت محمود . يصعد إلى الطابق العلوي ، يلعب ويتمرغ على بلاط الشرفة الرطب ويرى المقعد الكبير الموضوع في زاويتها اليمنى . بالأمس وهما يلعبان أسفل الجسر ، قال له

محمود : أنه أكبر من كرسي الناظر بكثير ، ولايجلس عليه إلا أبوه أو العمدة عندما يزورهم . آه لو دخل إلى البيت الآن !! سوف يغافله ويجلس عليه هو الآخر ويضع ساقاً على ساق !!

لكن أين غرفة محمود . حلف له هذا الولد السمين برأس الشيخ (أبو علوان) بأن له غرفة لاينام بها أحدٌ غيره . بها لعب كثيرة . بعدد نجوم السماء . آه لو اقتحمها وأكل كل اللعب بأسنانه !!

استسلمت قدماه . خطا خطوتين تجاه البوابة الحديدية . لمس المقبض بأظافره الطويلة ، ثم احتضنه بباطن كفه الأيمن . كاد أن يعبر البوابة بالفعل ، لولا ضحكات محمود التي سقطت على رأسه .

أرخى كفه على الفور من على المقبض ، ومد بصره إلى أعلى . كان محمود منكفئاً على حافة الشرفة ، يلوك شيئاً فى فمه .

قال له بدهشة .

ـ أحمد ! أحمد ! إنت لسه واقف ! بتعمل أيه عندك !

لم ينطق بكلمة ، زمقة بنظرة خاطفة ثم طأطأ رأسه وسار في حال سبيله .

* * *

مشى عدة خطوات . والتفت ناحية الشرفة !

لايزال محمود واقفاً بها وكانت أمه إلى جواره ، ترتكز بساعدها

الأيسر البض على حاجز سورها الحديدي وتمسك بكفها الأيمن كوبا من الشاي ، تحسو منه باستمتاع .

جال فى خاطره أنه يحكى لها شيئا عن الحقيبة الملعونة ، وأحس بعينيهما تقلبان النظر فيه . تعريانه . تعدان ثقوب إزاره الداخلي واحداً بعد الآخر ، وبأنفيهما يتشممان كل قطعة في جسده .

بادلهما النظر بعين كارهة . تمنى لو سقطت بهما الشرفة ، أو ضرب البيتَ زلزالٌ فدكه على من فيه .

أشارت إليه والدة محمود بفم باسم أن يقترب . انفرج قلبه . أسرع إليها ووقف أسفل الشرفة .

رفع رأسه . لم يجد لإبتسامة المرأة أى أثر ، وإنما تنحنحت عدة مرات، وقالت بصوت متحشرج :

ـ إسمع يا ولد . لما أبوك يخلص شغل في بيت العمدة خليه يعدي علينا .

ـ ...

ـ فاهم يا ولد . الكلاف بتاعنا غايب النهارده . وعايزينه يحلب لنا البهايم .

ـ ...

ولما طال صمته نظرت المرأة إلى ولدها متعجبة ، وقالت :

ـ مش ده ابن مرسي خدام العمدة .

أومأ لها رأسه بالإيجاب .

فقالت له بدهشة تشوبها بوادر الضيق :

ـ أمال ساكت ليه ! هو أخرس !

ـ أبداً .

ثم التفت إليه محمود ، قطب جبينه وقال .

ـ أحمد ! أحمد ! أيه إللي جرالك !

وقالت أمه بتأفف .

ـ أما صحيح ولد ملعون .

ولما فرغا من حديثهما ، استدار ومشى بعيداً عنهما دون أن ينطق بكلمة . الشئ الذي أثار عجبه ! ذلك اللغد الكبير المتدلي على رقبة أم محمود . سأل نفسه ، لماذا لم يلحظه وقت أن نادت عليه ؟! لو كان الأمر بيده لعاد إليها ، وغرس شوكة فيه أو قذفها بروث البهائم .

* * *

توقف عن السير ، لما أحس بأنه صار بعيداً . انحرف ناحية الترعة ، وأزاح سير الحقيبة الأجرب من على رقبته ، ثم ركلها بقدمه . لم تتزحزح . حملها بكلتا يديه ورماها بعيداً ، حتى اختفت بين أعواد الغاب . استراح لما فعل ذلك . تثائب وتمطئ ، ثم جلس على حرف

الترعة ومدد قدميه .

مـرت عليـه ليلة الأمس بطولهـا وهو يقظ . لم ينم إلا سـاعـة أو ساعـتين . أبوه ظل جالساً أمام البيت هو وأصحابه حتى منتصف الليل وربما لقرب الفجر ، يحرقون المعسل والحشيش ويتـمازحون بكلمات فاحشة ، وأمه ـ داخل البيت ـ جالسة على الأرض ساهمة لاتتكلم .

غسل أكـواب الشـاي عـشـرين مرة وعندمـا تأخر في تنظيف الجوزة بصق عليه أبوه ساعتها أمام أصحابه ، وصاح فيه بصوته الغليظ « أنت هتسوق العوج يا ابن زينب ».

انكمش على نفسه في ركن قريب منهم . كاد أن ينام رغم السعال العنيف والضحكات الوحشيـة التي كانت تهز الأرض من تحتـه . ولما انشـغل أبوه بـالكلام ، تسلل على الفـور إلى أمـه . ألقى برأسـه على فخذها . غزت الفرحة كل عـينيه عندمـا تبسمت له وملست بكفها على جبينه . أراح رأسه على جدار بطنها وأغـمض عينيـه . تمنى لو يغوص بكل جسده في أحشائها .

رفعت طرف جلبابه . أسلم نفسه لكفها الخشن ، ولأطراف أصابعها التي تدغدغ جلد ظهره . حام في بـاله أنها سوف تحكي له (حدوته) . لم تقل شيئاً . ظلت صامتة . سمعها تكلم نفسها فقط وتغمغم . أراد أن يسألها عما تقول ، إلا أن النوم غلبه .

* * *

قام بتثاقل . مشى خطوتين ، ثم عاد وجلس .

مد بصره إلى ماء الترعة . أحس بشئ من الخدر وكاد أن يغفو ، لولا قطار من النمل كان يسير إلى جواره ، لمحته عيناه فانتبه .

أمسك بقشة صغيرة معترضاً طريقه . ظل يعابث النمل ، لم يتركه إلا بعد أن تفرق وسقطت ذرات الطعام التى كان يحملها .

إنتابه الملل ، والحيرة فى الذى يفعله من الآن حتى آذان المغرب .

باب البيت مغلق بالمفتاح ، وأمه لن ترجع إلا بعد غياب الشمس .

التفت بعينه . لمح صرصاراً يهم بالصعود على أطراف مريلته . أسرع إليه بأصابعه . قلبه على ظهره وظل يحملق في أرجله الرفيعة وهي تتلوى بلا فائدة . امتد بطرف إصبعه إليه . أعاده إلى هيئته الأولى . قلبه على ظهره مرة أخرى . ظل يعيده ويقلبه ، إلى أن طافت أخته نادية بخاطره فتركه يفلت بعمره . آه لو كانت معه الآن !! لجعلها تمتطي ظهره وزحف بها على يديه وقدميه ، وقلد صوت الكلاب والقطط والحمار والخروف وكل شئ ، وهي تضحك وتضربه على رأسه بكفيها الصغيرين. سوف يختبئ بين أعواد الغاب لتبحث عنه ، وما أن يبدو الخوف على وجهها يخرج ويقفز عاليا . يظل يقفز وهي تضحك ، حتى تقع على الأرض من كثرة الضحك .

وخزة مؤلمة سممت خيالاته . تذكر ما حدث لسنتيها الأماميتين.

ضربها ابن العمدة بطوبة فسال الدم على وجهها ، انخلعت واحدة وانكسرت الثانية .

ألقت أمه بوعاء كان فى يدها على الأرض ، وحملتها وعادت إلى البيت .

صمم على التربص بالولد . أبوه هو الذي سحق الفكرة من رأسه . شكت له أمه من العمدة وأولاده ، كانت تتكلم وهو ينظر إليها بغيظ وشب الحريق لما قالت له « أنا خلاص زهقت من الخدمة في البيوت ملعون العمدة وولاده أنا مش رايحه بيته تاني ».

شاط الطبلية ساعتها بكل عزمه ، وركلها في بطنها . ظل يصيح ويشتم فيها . لم يتوقف إلا لما جاء أصحابه .

بكت نادية كثيراً في هذه الليلة . ولم يذق طعم العشاء ، لاهو ولا أمه .

* * *

قرصه الجوع فقام إلى الحقيبة . وجد بها رغيفين من الخبز ، أكل واحداً وترك الآخر ملقيا علي الأرض . انتفش الخبز في جوفه بعد قليل وآتاه الخدر مرة ثانية . أراد أن يضع الحقيبة تحت رأسه وينام ، لكنه خاف أن يسقط في الماء وتبكي عليه أمه . كثيرا ما يرى الدمع في

عينيها ، وعندما يسألها كانت تربت على ظهره وتقول له « يمكن شوية تراب دخلوا في عيني وأنا بكنس بيت العمدة» .

كانت تكذب عليه . بالفعل كانت تكذب . من يومين وفي سواد الليل أحس بها وهي تنهنه بصوت مكتوم ، ولما اقترب منها قطعت البكاء ووضعت يدها على جبهتها ، اقترب منها أكثر وكاد أن يهزها بيده لولا نحنحة أبيه ، سمعها فانقطعت أنفاسه ، لكن عيناه بقيتا مفتوحتان إلى أن شقشق النهار . قبل أن ينام أحس بهمس يدور بينهما ، التقط من كلمات أمه شيئا عن العمدة ، وعن ابنه الكبير البالغ . كاد قلبه أن يتوقف لما رأى أباه يدفع أمه بيده ، ويصيح فيها بصوته المرعد « نامى واتخمدي يا جاموسة . دول ناس أكابر ومحترمين ».

كان همسا كالذي دار من قبل بين أمه وخالته مبروكة . قام مخضوضا من عز النوم علي صينية الشاي التي سقطت على الأرض ، وعلى رعشة اللمبة الجاز رأى خالته مبروكة . كانت واقفة وانحنت تجمع الأكواب المبعثرة . سمعها تدعو على أبيه وعلى زوجها الجالس معه بأن يقصف الله عمريهما ، وسمع أمه تقول بصوت خافت « أمرنا لله يا مبروكة» . التفت إليها . كانت تهم بالقيام من جلستها . تابعها بعينيه وهي تحمل نادية وتضعها إلى جواره . اقترب وجهها من وجهه . لمس عقد الكهرمان المتدلي على صدرها . هم يجذبها من طرف جلبابها ،

لكنها كانت قد استدارت وجلست بجانب خالته مبروكة .

تنهدت وقالت لها « العمدة ده راجل تندب في عينه رصاصة . إمبارح يدخل ورايا أوضة الخزين ويقرصني بصوابعه إللى عايزه قطعها ». وسمع خالته مبروكة تقول لها « مقلتيش للعجل جوزك ليه ». وتهامسا بكلام آخر لم يفهمه ..

* * *

هبت عليه نسمات باردة داعبته إلى أن تسلل النوم إلى أجفانه ، فألقى بنفسه بين أعواد الغاب .. وعندما استيقظ رأى أشعة الشمس مائلة على صفحة الماء . أطال النظر فيها . أعجبته . اقتلع عوداً طويلاً من الغاب ونزل إلى حرف الماء . أمد العود بأقصى عزمه ليلمسها . كانت أبعد . أعاد المحاولة مرات ومرات بلا جدوى ، ولما انكفأ على وجهه وكاد أن يسقط في الماء ألقى بالعود .

عاد ببصره إلى صفحة الماء . قلبٌ بكفه في بضعة أحجار ملقاة إلى جواره ، انتقى واحداً منها صغيراً ومحدب الجوانب . ألقى به على الماء بمهارة . انسابت الدوائر الواحدة تلو الأخرى . انتقى حجراً ثانيا وألقى به. وثالث . ورابع . الدوائر تتسع وتتزايد . والزهو يتسلل إليه قطرة بقطرة.

حام في باله أن يرجع إلى بيت محمود . ينادى عليه ويتحداه أن

يفعل مثله ، ويتشاجر معه ويسيل دماءه إذا فتح فمه بكلمة ، ثم يكمل السير إلى بيت الأستاذ حنفى ويلقي بالأحجار على نوافذ منزله .

عاد وأمسك بحجر ثقيل . رماه بكل عزمه في الماء . أحدث دوامة ودوياً عاليا . أتبع الحجر بآخر أكبر وأثقل . الدوامة أعمق ، ودوي الصوت أعلى وأعلى .

جرت الدماء في كل شرايينه ..

نقر خاطر مجنون في رأسه أن يصطاد سمكة كبيرة بكفه وأظافره ، من غيره يقدر على ذلك ! محمود أم عثمان ! السمك الصغير بل حتى أبو ذنيبة يعرف سنارتيهما ، ينتظرها بشوق ويلتقط الطعمّ منها فى ثانية واحدة وهما لايدريان ، أما هو فالكل يعمل له ألف حساب . لو كان عنده سنارة لملأ بها (شوالا) من السمك وباعه في البندر . المشوار بعيد والحمل ثقيل . إذن ! يشتري حماراً صغيراً يذهب به ، لن يضربه أبداً مثلما يضرب محمود حمار أبيه بعصا رفيعة . ولن ينسى نادية . في كل مرة يذهب فيها إلى البندر يشتري لها لعبة ، باقي النقود يعطيها لأمه .

أبوه هو السبب . شده من أذنه حتى كاد يلصها بين أصابعه ، لما طلب منه عشرة قروش يشتري بها سنارة . قال له هازئاً « أهو ده إللي ناقص . تطلع تصطاد سمك في العصاري زي ولاد الأكابر ».

استرجع صوت أبيه مرة ثانية . وثالثة . هو الصوت الذي جاء في الحلم .

هو بالفعل ..

استعاد الحلم لقطة بلقطة ، وأخذته الحيرة من مدار إلى مدار .

عاودة الخاطر مرة ثانية ..

جمع أطراف مريلته ووضعها في سرواله . نزل إلى الترعة بقدميه ، ثم بساقيه إلى أن غمره الماء حتى منتصف فخذه .

إنثنى بكل جسده وأمسك شيئا . فتح كفه فلم يجد إلا حفنة من الطين . رماها بحنق . وفي غمرة إصراره المجنون ، فات عليه أن الماء يمكر به ويمد له الحبل قبضة بقبضة .

أحس بسمكة تفلت من بين قدميه . إنثنى عليها دفعة واحدة . أمسكت قبضة يده اليمني بذيلها واحتضنها بكفه ، لكن قدمه انزلقت في منحدر صغير ، وغمره الماء حتى صدره واستطال وتحسس أطراف عنقه . انشغل بنفسه ثانية أو ثانيتين ، طارت فيهما السمكة من بين يديه . ظل واقفا . لم يتقهقر رغم ما أحس به من خطر .

انساق أكثر وأكثر مع الماء ، وملمس السمكة التي طارت منه يذيب عقله إلى أن سقط مرة واحدة في منحدر آخر . أخبث وأعمق . حاول الصعود . لم يقدر . صرخ بأعلى صوته ، فجلفت بطة صغيرة كانت

قابعة على سطح الماء . رفرفت بجناحيها وطارت . حطت بعيدا عنه . رأى وجه نادية يطفو على سطح الماء ، ورؤوس أخرى كثيرة بعضها بلا ملامح . تتدحرج كلها من حوله . تقترب وتبتعد . وطنين . طنين ثقيل . وكانت أمه واقفة على حرف الماء ، وعيناها عليه . إشتد صراخه وأشار لها . لم تتحرك . ظلت تحملق فيه حتى هلك تماماً وطواه الماء .

جرو صغير كان يبول بين أعواد الغاب . رآه فعوى . عواءً مؤلماً ، ثم انكفأ على وجهه يتشمم رغيف الخبز الملقي بجوار الحقيبة .

* * *

مارس ١٩٩٧

أول الأحزان

ـ يا حج . يا حج . إصحى يا حج .

هب الحاج شبراوي من النوم على الصياح . فتح النافذة والكدر يعلو جبهته ، وزعق في عبدالسلام .

ـ جرى أيه ! أيه الخوته دي على الصبح .

تبسم الرجل العجوز .

ـ صبح مين يا حج . دا احنا قرب الضحى .

ـ صبح ولاضهر . أيه يعني اللي جرى في الدنيا .

فرك عبدالسلام عينيه من ذرة غبار طالتها ، وقال بصوت متردد .

ـ أصل . أصل الـ ... حبيبك النبى ما تزعل يا حج . أصل النعجة العرجة فطست .

قاطعه قائلاً ..

ـ أيه أيه ! النعجة العُشر !

ـ أيوه . هيه بعينها . فطست وهيه بتولد .

ـ لاحول الله يارب . الشهر اللي فات كبش يفطس . والنهارده نعجة تموت . دا أيه الهم ده .

رجع عبدالسلام بظهره خطوه إلى الوراء ، وقال :

ـ ما انت عارف يا حج إنها عيانه . وأنا قايل لك مش هتكمل الشتوية دي .

رد عليه بغيظ :

ـ وأنت خسران أيه . ما أنت آخر كل شهر بتاخذ اجرتك .

ـ جرى أيه يا حج . أيه لزمته الكلام ده .

زم الحاج شبراوي فمه لحظات ، ثم هرش طرف شاربه وقال .

ـ طب واللي في بطنها .

أجاب عبدالسلام بفتور .

ـ إطمن . لحقناه أنا وأم حسن . آهو عفي وكويس .

ـ طيب يللا يللا . روح أنا محصلك بعد شويه .

ولما أغلق النافذة واستدار ، لم يجد أحمد في السرير .

أمسك الولد طرف ثوبه بأسنانه وطار .

* * *

كانت أم حسن تجلس بحذاء حائط الزريبة ، ساقاها ممدودتان أمامها

والعرق يتفصد على جبينها .

ألقى بنفسه في حجرها ، وقال لها يأنفاسه المبهورة :

ـ أم حسن . أم حسن . أمال الحولي فين .

دغدغت عنقه بأطراف أصابعها ، وهمست في أذنه .

ـ إنت صحيت . نوم العوافي .

ثم مسحت حبات العرق المتدحرجة على خدها ، وتمتمت بصوت خفيض .

ـ ربنا يهد حيله عبد السلام . صحاني من الفجرية . جيت وراه جرى.

تململ في حجرها ، وهز ذقنها بأصابعه .

ـ لأه بصحيح . فين الحولي .

ـ ده دي ! أصبر . دلوقت عبد السلام يجيبه .

ـ طب هو طلع له كام قرن .

ضربته على ظهره ، وضحكت .

ـ يوه جتك أيه . هو لسه صلب طوله عشان تطلع له قرون .

تاهت عيناه لحظات ، ثم أحاط كفها بيديه الصغيرتين وقال بصوت خافت .

ـ أمال أمه ماتت ليه .

لفت ذراعيها على صدره وتنهدت .

- أمر الله . عمرها لحد كده .

وأقبل عليهما عبدالسلام مسرعا ، وضع الحملّ أمام أم حسن وقال :

- رضعيه إنتي . أنا مش فاضي . رايح أشوف لي صرفه في النعجة الفطسانة .

قبل أن يستدير مالت نحوه وشدته من طرف جلبابه ، وصاحت .

- جرالك أيه . مش تسمي عليه يا قليل الدين .

حملق فيها بغيظ ، وزمجر .

- أنا مش ناقصك يا وليه انتي سيبيني في حالي .

وانسل أحمد من حجرها . تزحزح بعجيزته نحو الحملّ ، وأنفاسه تتلاحق . نظر إليه بحذر . كانت عيناه مغلقتين وأنفاسه تتواكب بلاصوت . أمسك بقشة ونغز بها ظهره . إرتجف الحملّ وطوح رأسه قليلا إلى اليسار دون أن يفتح عينيه . ولما شده من ساقه ، انتبهت له أم حسن . صاحت فيه محذرة .

- أوعي . سيبه . دا لسه عضمه طري .

إلتفت إليها واتسعت عيناه ، ثم التصق بها وقال بصوت هامس .

- دا مغمض . هو أعمى مبيشفش .

- لا أعمى ولاحاجة . دا غشيم ولسه فاكر نفسه في بطن أمه .

ـ أمال هيرضع إزاي .

ـ أديك هتشوف . بس اصبر شوية عليه لما أفوقه الأول .

سحبت بصلة كانت تضعها تحت ركبتها ، دشتها (بكلوة) يدها وقربتها من أنف الحملّ . جفل برأسه على الفور واهتز كل جسده، فأمسكت به ودعكت بها فمه وأنفه مرات كثيرة . ارتخى فى يدها أول الأمر ، ثم بدأ يعافر لتخليص رأسه منها ، وهى تقول بنبرة ضاحكة .

ـ أنت هتناكف من دلوقتى .

عطس في وجهها وتجمعت رغاوى كثيرة حول أنفه ، وظل يعافر بقوائمه النحيلة حتى هب واقفاً مرة واحدة ، يرتعش ويعطس ويتلفت حوله بعينين مفتوحتين عن آخرهما ..

دفعه أحمد دفعة خفيفه بإصبعه ، فوقع على الأرض .

زجرته أم حسن ، قائلة .

ـ وبعدين ! مش قلت لك سيبه .

ومالت على الحمل . لفت ساعدها الأيسر عليه ، وأمسكت بعصا كبيرة في اليد الأخرى ثم أومأت له برأسها ليفتح باب الزريبة . كانت الغنم كلها واقفة خلف الباب تتأهب للخروج .

أشاحت بالعصا فى وجهها ، وزعقت فيها بصوت عال .

ـ سك .. سك .. سك ..

تراجعت الغنم بمؤخراتها ، وبدأت في المأمأة .

* * *

إنحنت أم حسن على بحراية الزريبة ، والحمل عالق بصدرها . لمت القوالح الفارغة على جنب ، وساوت الأرض بيديها ، ثم أخذت عدة أحفان من قش الأرز من (شوال) بجوار الباب . بدرتها على الأرض ، وطبطبت على الحمل ووضعته عليها .

انبط لحمه الطرى على القش ، ومط رقبته نحو الغنم . حاول الوقوف مرتين ، لكنه في كل مره كان يعجز عن تخليص قوائمه الرفيعة التى تشابكت في بعضها ، فهبط بعنقه ومال بكل رأسه على الأرض وأغمض عينيه مره ثانية .

ودارت هى ببصرها بين النعاج .

اقتربت نعجة من تلقاء نفسها ، هشت لها وقتمت بنبرة ممطوطة هامسة .

ـ تعالى .. تعالى .. ربنا يحننك عليه .

مدت النعجة رأسها إلى الحمل وتشممته . أحس بها وفتح عينيه .

دارت حوله نصف دورة ولحست ظهره . رفع رأسه ناحيتها ، وارتعشت فتحتى أنفه . وأنحنت عليها أم حسن . تحسست ضرعها ، ثم مطت شفتها السفلى وطبطبت عليها ودفعتها بيدها غير أن النعجة

ظلت واقفة . ضربتها بالعصا ضربة خفيفة على ظهرها ، فجرت من أمامها .

لمح أحمد نعجة منزوية في ركن الزريبة ، ضرعها منفوخ ومتدلى أسفل منها . أشار لها عليها ، قبلته في خده وقالت :

ـ براوة عليك . أقعد بقه جنبه وحرص عليه . أوعى نعجة ولا كبش يدوسه .

تطلع لها بعينيه ، وقبع صامتا بجوار الحمل . واندست هى بين الغنم . أمسكت بالنعجة وسحبتها من رقبتها . ثنت النعجة رأسها إلي أسفل وتشبست بالأرض ، وضاق سواد عينيها وانزوى على جنب .

نخستها بطرف العصا في إليتها ، وشدتها من أذنيها . والنعجة تمأمأ بصوت عال . أوقفتها أمام الحمل وأقعت هى على ركبتيها ووضعت الحمل في حجرها . التفتت النعجة إلي الحمل ، وضمت قائمتيها الخلفيتين ، فزرت أم حسن على عينيها وقالت بضيق .

ـ آه يا كشرية يا ملعونة .

ثم شدت ساقها بغيظ إلى الخارج ، وأمسكت برأس الحمل ووضعت فمه على حلمات الضرع ، والنعجة تأبى وتعاند ، وهى تشخط فيها وتلكمها فى ظهرها .

مضت دقائق ، والنعجة تدق بحافرها الأيسر الأمامى على الأرض

وتمأمأ والغنم ترد عليها .

فأرخت أم حسن ساعديها إلى جوارها ، وقالت بصوت لاهث .

ـ جاك خابط في نفوخك يا عبدالسلام . مش كنت تقف جنبي الساعة دي .

ولما استراحت استعاذت بالله بصوت خفيض ، وقرأت الفاتحة في سرها والولد يحرك شفتيه مثلها .

ضحكت ، وقالت .

ـ يعني حافض الفتحة .

رد عليها بحماس .

ـ آه . حافض نصها .

ـ اسم الله عليك . طب يا حبيبي إقف على رأس النعجة وإقرا اللى إنت حافضه . وملس عليها عشان تحن وتدر اللبن .

وأمسكت هى بضرعها . مررت كفها عليه مرات كثيرة من أعلى لأسفل ، ودغدغت حلماتها بأصابعها وهرشت من حواليها . شيئاً فشيئاً استطيبت النعجة الهرش ، وانتفخت الحلمات باللبن . ولما أحست بأنها لانت قبضت على واحدة منها بكفها ودلكتها هابطة صاعدة ، حتى قفز منها سرسوب لبن حار وساح في كفها .

فتمتت بصوت خافت وأنفاس متواكبة.

- بسم الله . الله أكبر . ياما أنت كريم يارب .

وترك أحمد رأس النعجة ، وقفز لأعلى صائحا .

- هيه .. هيه ..

أشارت له أن يسكت ، وقالت :

- بالراحة يا عنيه . أحسن النعجه تحرن .

اقترب منها . لبد إلى جوارها ينظر برهبة إلى ضرع النعجة ومدت هى كفها المبلل باللبن إلى الحملّ . تشممه ولحسه ، ثم مال برأسه على الضرع . تحسس حلماته بطرف لسانه ، ولقم واحدة منها فى فمه ، وأم حسن تربت على رأسه بحنو ووجهها كله فرحة .

ولما أتم الرضعة حملته في يدها ومشت ، ومن ورائها أحمد .

كان عبدالسلام واقفاً بالقرب من باب الزريبة ، يمسك برقبة الحمار والنعجة الأم ملقاه على ظهره .

اقترب منه أحمد وعيناه علي رأس النعجة النافقة ، وقال بصوت خافت .

- رايح فين ؟!

- يعنى هروح فين ياسى أحمد . هرميها للكلاب . لك غرض تيجى معايا .

نزل بعينيه ، وابتعد عنه .

أمسك بيد أم حسن ، وقال .

- هيه كانت عيانه .

همست فى أدنه .

- أبوك جاى أهه . إجرى سلم عليه .

كان الحاج شبراوي يهبط من بسطة السلم متجها إلى الحوش ، حواف الطاقية الوبر مشدودة كالسيف والخيزرانة في يده . اقترب من الحملّ . نغزه مرتين بطرف الخيزرانة في جنبه ، وهز رأسه وقال .

- عال عال ، دا عفي بصحيح ويسوى الشئ الفلانى .

ثم التفت إلى عبد السلام وأردف .

- إنت رضعته .

أجابت أم حسن بفرحة .

- أيوه يا حج . رضع وشبع .

- طيب سايبينه في الحوش ليه . دخلوه الزريبة .

فأسرعت قائلة :

- يلهوى يا حج . دى كانت الغنم تفرمه برجليها . هو له أم تحاجى عليه .

وانحنى عبدالسلام على الحمل ، وهو يبرطم بصوته الغليظ .

- إنت حر في مالك يا حج . وأنا خالى مسئولية .

سكت الحاج شبراوي برهة ، وقال .

ـ خلاص خلاص . سيبوه في الحوش لحد ما يكبر .

وأشعل عبدالسلام السيجارة التى في يده ، وصاح في الحمار .

ـ حا .. حا ..

سحبه من رقبته ، والنعجة تترجرج على ظهره . وعينا أحمد تتابعانه وهو يخطو عتبه الباب ، ويعرج بها نحو حافة الترعة .

* * *

منذ ذلك الصباح وفى مطلع كل نهار ، كانت أم حسن تضع الحمل على صدرها . تذهب به هى وأحمد إلى الزريبة ، ولا يرجعان إلا بعد أن يشبع . ولما قويت سيقانه كان يمشى بجانبهما ، ساعات كان يلوى رأسه يميناً ويساراً ، ويقفز قفزات متتالية ويسبقهما ويجرى .

فيشير إليه أحمد ، ويصيح .

ـ بصى ! شوفى ! آهو سابنا وجرى وإحنا اللى رايحين معاه !

تضحك ، وتقول له .

ـ طب أجرى هاته . أحسن كلب يعضه .

وفي مرات كثيرة كانا يتلكئان من خلفهما ، فتنادى على أحمد غاضبة بأن يكف عن اللعب معه ، وألا يؤخره عن الرضعة .

فيجيبها بغيظ .

ـ متزعقي له هو كمان . دا كسلان وعايزني أشيله .

ـ دا لسه صغير . ومش حمل زعيق ولامناقرة .

فيقول لها ، وعيناه تشعان ببريق ضاحك .

ـ دا مش كسلان وبس . دا خواف كمان . بيخاف من دكر البط وأنا اللي حوشته عنه .

ـ شاطر شاطر . أيوه كده حن عليه .

وفى الزريبة كانا يجلسان إلى جواره وهو ينهل من ضرع النعجة ويضحكان عليه ، كلما التفت برأسه وأحسا بخوفه من أن يتركاه . وعندما يفرغ من رضعته ، كان يقف بينهما ويهز رأسه ويأمأ مشيرا لهما بالعودة .

* * *

كثيرا ما لاحظ الحاج شبراوى تلك العلاقة التى لم يألفها قط . أبدى دهشته فى بادئ الأمر ، إلا أن القلق كان ينتابه يوماً بعد يوم .

صاح مرة فى وجه أم حسن :

ـ جرى أيه يا وليه . مش هتبطلى خفّية العقل دى .

ـ ليه يا حج . هو أنا مجنونه ! كلام أيه ده !

ـ أيوه مجنونه وستين مجنونه . دا أنتى خيبتى الوله . داير يقول للعيال أنا والحولي إخوات ..إياكى فاكره إنى مش دارى باللى بيحصل

فى البيت.

ـ جتـه نيله عـبد السلام الخبـاص . دا عـيل يتـيم الأم وعـايز الحنيـه . بكره يا خويا يعقل . ما أنت كنت زيه وأكتر .

صاح فيها بحنق .

ـ بتقولي أيه .

ـ أيوه يا خـويا كنت زيـه وأكتـر . ياما شلتك علي حجرى . وياما عملتها عليه .

ـ أما وليه لسانك فالت بصحيح .

ـ طب يا خـويا روح الله يسـامحك . أنا وليـه كـبيـرة ومش حـمل المناهدة. ومش غاصبنى على القعدة إلا المحروس ابنك .

ـ كده . طب اعـملى حسابك من بعد العيـد الكبير ملكيش عيش فى بيتى .

ـ ما أنا عارفه . عارفه . عارفـه . مش هتتجوز بنت الشيخ فرحات . الله يسـهل لك . ومين يا خويا اللى عايز يقعد لك .

ثم اخـرجت منديلا مـهلهـلا من صدرها ، ومـسـحت دمـعـة علقت بأهدابهـا . غـاضت الدمـاء من وجـه أحمـد سـاعـتـهـا ، وأمـسك بطرف جلبابها ، وهى تطبطب عليه وعيناها حمراوتان كالدم.

* * *

مضت شهور ، وأصبح الحمل خروفا.

نبت له قرنان ، لايتجاوز طولهما بوصتين أو ثلاث . كان مزهوا بهما ، وطول اليوم يرفع رأسه ويلويهما في كل اتجاه ، وينطح بهما كل ما يصادفه فى حوش البيت . لم تنج أم حسن منه وما كان يمضى يوم ، إلا ويباغتها عدة مرات ، يدفعها بقرنيه فى ظهرها دفعات خفيفة ، فتصيح فيه .

ـ روح كده . جاك كسر قرنك .

وهو غير عابئ بزعيقها الكاذب . وإذا رأى أحمد كان يثني رأسه ويفاجئه بنطحة يتلقاها منه بصراخ ضاحك ، ويمسك قرنيه بكلتا يديه ويدفعه منهما والخروف يعافر ويعاند . وعندما يشتد شغبه ، كان أحمد يجرى من أمامه ويصرخ فى أم حسن .

ـ قولى له يسكت أحسن له .

تقوم عليه بعود من الحطب وتهدده قائلة .

ـ وبعدين وبعدين . أحسن أدخلك الزريبة وأخلي الكبش الكبير يأدبك.

* * *

إزداد حنق الحاج شبراوي مما يجرى ، وأخذ القلق يرتع في صدره كحصان جامح . كثيراً ما كان يقول لنفسه : أليس من الأولى أن يلعب

الولد مع بشر ، وليس مع خروف . أيمكن أن يصل به الحال ، ويصبح مثل « الواد علي ابن المأذون » . الولد فى مستشفى المجانين من سنتين بالتمام والكمال . يقول الناس أنه كان يكلم الماعز والبقر وفي يوم ضربه أبوه، فذهب إلى الحمار يشكو له . ولما تشاغل عنه بكومة البرسيم التى أمامه، شده من ذيله ليستمع له . رفسه الحمار ساعتها رفسة شديدة فانكشف المستور وعرف الناس أنه مجنون . أيمكن أن يصبح أحمد مثله؟

الذى أثاره أكثر وأكثر ، ذلك الموقف الذى حدث له اليوم . بعد صلاة العصر ، نادى عليه ناظر المدرسة الإبتدائية التي بجوار المنزل . قال له مازحا : بأن المدرسة لم تنشئ بعد فصلا دراسيا للخراف ، وإذا دعت الضروره سوف يخاطب الجهات الرسمية بذلك . ولما تشكك فى أنه ليس المقصود بالحديث ، فغر الرجل اللئيم فاه وقال له بصوت مرتفع على ملأ من الناس : بأن خروفاً صغيرا من خرافه ، تسلل إلى المدرسه واقتحم الفصول ، وعندما حاول أحد المدرسين الإمساك به عاجله بنطحة بأعلى بطنه ، أوقعته على الأرض وانكسرت نظارته . وهاجت المدرسة ، وزاط الاولاد. لم ينقذ الموقف إلا ابنه أحمد ، جاء مسرعا خلف الخروف وعاد به إلى البيت .أحس بالخجل والغيظ ساعتها ، واعتذر له . لكن لسان الرجل لم يدخل فمه . ظل يرغى ويقول ويعيد ، فشار فى وجهه وكاد

الأمر ان ينقلب إلى عراك بالأيدى لولا تدخل الناس .

* * *

أسرع الحاج شبراوي إلى البيت ، والدم يتفجر فى رأسه .

تناهت إليه الضحكات والصياح وهو على عتبه الباب الخارجية ، فدفع الباب بقدمه ، وهرول ناحية الحوش . كان أحمد جالساً على ظهر الخروف ، يحثه على المشي بدفعات من قدميه .

وأم حسن ، تؤنبه وتقول .

ـ طيب . منتش عايز تمشى . إن ما قطعت عنك البرسيم يومين وأدبتك .

وأحمد يؤكد على كلامها .

ـ والدره كمان .

والخروف يأبى المشي ، وقرونه مرفوعه إلى أعلى في اعتزاز .

صاح الحاج شبراوي .

ـ أيه البوظان ده . أيه الكلام الفارغ ده .

ودفع أحمد من على الخروف ، فتلقفته أم حسن وهى تقول بجزع .

ـ يلهوى . إسم الله عليك يا حبيبي .

زعق فيها .

ـ يا شيخه روحى . كله منك ومن جنانك .

أحست بالنار تخرج من عينيه ، فسكتت . والتفت هو إلى الخروف ، ما كاد يهم بركله ، حتى أسرع من أمامه .

طاشت الركلة في الهـواء ، فـازداد غـيظه وصـاح على الفـور في عبدالسلام ، ليمسك به ويرميه فى الزريبة مع الغنم .

جرى عبدالسلام والخروف أمامه . استدار له فجأة ونطحه فى بطنه ، لكن الرجل الحويط ناور بجسده ولوى عنق الخروف ثم أمسك بأذنيه وجره منهما ، وأغلق عليه باب الزريبة .

لم تمض لحظات حتى بدأت الجلبة في الزريبة ، فجذب أحمد كفه من يد أم حسن وجرى نحو باباها .

صرخ فيه أبوه .

ـ وله ! إنت ياوله . تعالى هنا .

فـأسرعت إليـه أم حسن . شدته من يده و أجلستـه إلى جوارها على بسطة السلم ، وأنفـاسه تتـلاحق بصـوت مسـمـوع . ولما ازدادت الجلبـة وعلت مـأمأة الغنم ، فتح الحاج شبراوي الزريبة بنفسه . فوجد الخروف منزويا في ركن ، والكبـاش تشـبعـه نـطحـا ، أشار عـليـه عـبـدالسـلام ساعتها بأن يخرجه ولو الليلة فقط والا قتلته الكباش .

وخرج الخـروف ، جدار بطنه يعلو ويهبط بشكل لافت ، ورغـاوي مـخضبه بالدم تحيط بفمه ، وكدمـات كثيـرة تملأ ظهره وعنقه . مشى

مشيه مؤلمة ، وعيناه هابطتان فى الأرض . ظل يمشى بجوار حائط الزريبة إلى نهايته ، ثم برك على الأرض ومال بكل رأسه ، حتى لامست قائمتيه الاماميتين وأغمض عينيه .

وتوتر كل البيت ..

* * *

وفى الصباح أسرع أحمد إلى أم حسن ، قال لها بفرحة .

ـ دا بكره الوقفه . وبعد بكره العيد . كل العيال بتقول كده.

تبسمت له ، فأردف .

ـ هو أنتى عارفة .

أخذته بين ذراعيها وربتت على رأسه ، وقالت .

ـ كل سنه وإنت طيب .

ـ طب فين الخروف .

ـ آهو ساند ضهره على الطشت النحاس وعامل نفسه زعلان .

كان الخروف راقداً فكه ممدود أمامه ، يلوك به أعواد البرسيم بتثاقل وملل . إنثنى عليه ودفعه بيده لينهض ، لم يستجب . حاول هو وأم حسن زحزحته من على الأرض ، ولافائدة .

فقالت :

ـ معذور . الكبش الكبير بهدله وهان كرامته .

أسرع أحمد ، وأمسك بعصا صغيرة وقال لأم حسن وهو ينتفض.

ـ هو فين الكبش ده وأنا أنزل على راسه بالعصاية .

قامت اليه وأخذت منه العصا ، وهى تصيح فيه بجزع .

ـ أقعد هنا . خليك جنبي . دا كبش شراني . أحسن ينطحك إنت كمان .

وظل الخروف باركا على الأرض حتى ظهيرة الوقفة لاينهض ولا يأكل إلا القليل ، إلى أن تكاثر عليه الحاج شبراوي وعبدالسلام وبعض الجيران . حملوه حملا على النهوض . قام ومشى خطوتين ، ثم برك مرة ثانية . أعادوا الكرة معه فمشى بعيداً عنهم وانزوى بجوار الحائط .

انحنى عليه رجل من الجيران . رفع إليته ومرر أصابعه عليها ، ثم جس بطنه وأمسك قوائمه الواحده بعد الأخرى ، مط شفتيه بحدها وقال متعجبا :

ـ ولا فيه أي حاجة .

وعندما خرج الحاج شبراوي ليصلى المغرب ، نزل أحمد إلى الحوش واستبدت به الدهشة ، لما وجد الخروف منحنياً على كومة من البرسيم يلتهم عيدانها كالمسعور . اقترب منه على أطراف أصابعه وباغته بصرخه وهو يثب عليه ، استدار الخروف منزعجا ، ولما عرفه نهض فى الحال وبادله وثبة بوثبة ثم رجع إلى الوراء وتجهز للنزال .

* * *

في الليل كان أحمد يتقلب فى الفراش .

قالت له أم حسن « اصحى من الفجرية أنا حضرت سبت القرص . هنروح نزور أمك ويمكن خالتك تيجي معانا كمان » . سألها « وهناخد الخروف معانا .. » . خبطت على صدرها ، وقالت له بنبرة ضاحكة « يلهوى . هيروح فين المدهول ده .. »

فى المره السابقة لم يقل ولا كلمة لأمه ، بكى فقط وبكت معه أم حسن . ولما نادى عليه ولد ، ذهب معه . لعبا معا على الرمل ، وترك أم حسن تقرأ القرآن ومعها خالته . لكن هذه المرة ، في الأول يقرأ لها نصف الفاتحة ، وبعدها يحكي لها كل شئ عن الخروف ، وعن شقاوته. آه ! لو كان معه نصف جنيه لاشترى له طوق . رآه مع ولد ، ولما أعجبه قال له الولد « بيتباع فى الدكان إللى على راس الشارع إلحق اشتريه معدش عنده غير واحد بس » . طوق أخضر يتدلى منه جرس صغير . أم حسن تمسك بالخروف ، ويلفه هو حول رقبته . متى يشتريه ؟ الدكان لن يكون مفتوحا فى الفجرية . أيقول لأبيه !

نظر إليه . من أول الليل وهو نائم ، وشخير فى شخير . امتد بأصابعه ووكزه وكزات خفيفة فى ذراعه . انزلقت رأس الحاج شبراوي من على المخدة ، وانثنت على كتفه . انقطع شخيره ولم يستيقظ . مد

أصابعه مرة ثانية ، لكنه خاف أن يصحو أبوه مخضوضا ويشخط فيه .

سحب أصابعه وعض على شفتيه . واحتار . انتبه بعدها إلى نباح متقطع آت من بعيد . يعرفه . كلب الشيخ فرحات . ينبح طول الليل بلا سبب ويعض الناس . ظل ينبح ، وهو مغتاظ منه . ولما سكت الكلب جاء الخروف على باله . الطوق فى عنقه . والجرس متدلى منه . الخروف يلوى رأسه ، والجرس يهتز . يرجع بمؤخرته إلى الخلف ويثنى رقبته ، الجرس يهتز أكثر وأكثر . ويرن ويجلجل . وأم حسن واقفة أمام باب الزريبة ، تضحك على آخرها .

* * *

عندما قام من النوم ، لم يجد أباه في السرير . كانت أشعة الشمس تملأ الحجرة ، وفات أوان الفجر بكثير .

دلف مسرعا من الباب . لمح أم حسن من ظهرها . كانت جالسة على بسطة السلم ، بجوارها سبت القرص ، ودجاجتين تنقران فى حوافه دون أن تشعر بهما . لم تحس بوقع خطواته . انتبهت فقط ، لما وضع يده على رأسها . كانت عيناها غائبتين ، ووجهها ليس به نقطة دم واحدة . انثنت ركبتيه رغماً عنه وسقط في حجرها مرة واحدة . لم ير يدها التى امتدت إليه ، ولاسمع كلمه واحدة مما قالته . كان الخروف مذبوحا أمامه رأسه ملقاه على الأرض ، وجرو صغير يلعق قطرات الدم المتساقطة

منهـا. قـطرة بعـد قطرة . والخـروف ..كله .. ممدود عى جنبـه فى طست نحاسي كبير ، يعلوه ماء غائم وفقاعات كثيرة .. وأبوه محنيا على دلو يغـسل يديه ، وجلبـابه ملطخ بـالدم ، من الأمـام والخلف . ورجل شـرس يمسك بسكين ، يفصل بهـا اللحم عن العظام ، ورهط من الأوز هامـد بلا حركه ويحملق فى وجوم وذباب كثير يملأ المكان .

* * *

يناير ١٩٩٧

مرارة الفقد فى « أيام فى المنفى »
قراءة نقدية

بقلم د. جمال عبد الناصر
أستاذ الأدب الانجليزى
كلية الآداب. جامعة القاهرة

لعل أول وأهم ملمح فنى تنطوى عليه مجموعة « أيام فى المنفى» للروائى والقاص كمال رحُيّم يتمّثل فى تبنيها لفكرة محورية تدور فى فلكها القصص العشر التى تضّمنتها ، وأعنى بذلك « تيمة» الفقد بموتيفاتها المختلفة، والتى طالما أرّقت قرائح الأدباء منذ زمن طويل . فقد شغلت هذه الفكرة شاعر الملاحم الأول هوميروس فضمّنها رائعته «الإلياذة» وأختها « الأودسة » وراح يتأمل مليًا تبعاتها على أبطاله . كما شغّلت نفس الفكرة شاعر العصور الوسطى الايطالى دانتى فتناولها جزئياً فى عمله الخالد « الكوميديا الإلهية » ، وكذلك فعل شاعر الحب الإنجليزى الأشهر شكسبير ، لاسّيما فى أروع مسرحياته « هاملت » التى تصّدرت قائمة الروائع فى القرن السابع عشر فى أوروبا . وكم من كاتب غربى أو عربى راح يعرض لنفس الفكرة من منظور نفسي أو فلسفى أو غير ذلك مركزاً على المشاعر والأحاسيس والخواطر الانسانية

التى تتمخّض عن الفقد وخصوصا من خلال الموت .. مما أضفى مِسحة حزينة كئيبة على أعمالهم .

وكمال رحُيّم يوظف نفس الفكرة فنياً ومضمونياً ، فيجعلها أولاً القاسم المشترك أو الرابط بين قصصه التى أرادها أن تكون متصلة فى وحدة فنية مثل حلقات السلسلة ، ثم يجعلها بعد ذلك بؤرة المضمون أو المحتوى ، ليُحدث تأثيره فى نفس المتلقي . ويكشف هذا عن وعى بخصوص أصول كتابة المجموعة القصصية أو التفكير فى جمع قصص بعينها بين دفتيّ كتاب . فالشاهد قى الأمر أن القاص مثل الشاعر لاسيمّا إذا أراد أن يصدر مجموعة قصص ، فالشاعر يتمهّل طويلاً قبل أن يُصدر ديوانه فلا يتعجلّ وإنما يختار قصائده بتروٍ وتؤدة لتتدفّق مثل سلاسل الذهب فى وحدةٍ شكلاً ومضموناً ، فيجئ عنوان ديوانه دالاً وتجيء عناوين قصائده ذات مغزى مقصود فيتحّقق لعمله النجاح . وكذا يفعل ـ أو يجب أن يفعل فى تقديرى ـ صاحب المجموعة القصصية ، فهو يفاضل بين قصصه ، وينظر فى طبيعة كل منها وفى شحناتها النفسية قبل أن يضعها جنباً إلى جنبٍ ويُسقط عليها عنواناً ذكياً من داخل القصص أو من خارجها كيفما شاء شريطة أن ينسحب هذا على جميع القصص ويُلقى ببؤرة الأشعاعية عليها جميعاً دون استثناء . ولقد تجلىّ هذا بوضوح عند تشيكوف وهمنجواى وموراڤيا من كتاب الغرب،

ومحفوظ (خمارة القط الأسود) وإدريس « أرخص ليالى » والشارونى « العشاق الخمسة ».

وتتضمن مجموعة « أيام فى المنفى » عشر قصص تسير فى نفس الاتجاه الذى أراده لها صانعها لتحقيق مغزى بعينه ، وإن جرب شكلياً فى واحدة وجاءت أخرى كقصة باكرة تستمد أهميتها من كونها أولى تجارب الكاتب على طريق القص . القصة الأولى هنا هى «البقية فى حياتك»(واضح هنا مغزى العنوان) ،أما الثانية فهى « أول الأحزان» (وواضحة هنا أيضاً دلالة العنوان). أما القصص الثمانى الباقية فهى «فى يوم بعيد» و «لقمة العيش » و « فى أول النهار » و « آلام صغيرة» و « مشوار» و « شبراوي » و« أول الأحزان » و «شئ حدث» وبالطبع قصة العنوان « أيام فى المنفى» ذات الدلالة الخاصة جداً .

فى قصة « البقية فى حياتك» راح يجرّب القاص الاتجاه النفسي فى كتابه القصة والذى ظهر وازدهر فى الستينيات من القرن الماضى وسريعاً ما انزوى بغير رجعة ، وأعنى به « تيار الشعور» أو «اتجاه التداعى الحر» (وإن كان كاتبنا الكبير إدوار الخراط لم يزل يوظفه كآداه فنية كشفية !) . فى هذا المضمار يحاول القاص كمال رحّيم رصد انطباعات وأفكار شخصيته التى لاتكون دوماً منتظمة ولا مرتبطه ، فتأتى حبكته شبه مفككّة لتكون بمنزله المعادل موضوعى أو الشيىء لما يحدث داخل

النفس البشرية أو العقل على وجه الخصوص . ولطالما أبدع جويس ومن بعده وولف فى ذلك المضمار قبل أن تنحسر موجة تيار الشعور .

وهذا ما يحاول أن يفعله كمال رحّيم بغرض سبر أغوار العقل من خلال قصة تغازل السياسة من بعيد ، فتندّد بالنظام أو المؤسسة الحاكمة ـ بمعنى آخر ـ من خلال التعبير عن السخط لشخص تعرّض لحادث وأصيب اصابة بالغة جعلته يشعر بالفقد . ولكن يبدو لي أن القاص لايميل الى هذه المنطقة من القص ، فلم يحاول تكرارها فى قصص المجموعة واكتفى بمجرّد المحاولة ، علاوة على أنه لم يرد أن يحذف قصة « أول الأحزان » من المجموعة لبرائتها الفنية الشديدة أو حتى يعيد كتابتها رغم مرور السنين ، وقد امتلك ناصية الكتابة القصصية الناضجة ، فجاءت القصة بنفس شكلها البسيط رغم أنها تنطوى على موتيفة الذبح والدم ، وهى موتيفة عرفتها المأساة أو المسرحية المفجعة منذ نعومةٍ أظافرها ، حيث كانت تنتهى أحيانا بذبح خروف تعبيراً عن التضحية فى سبيل غسل الشرور وتطهير النفس البشرية ، وهذا ـ ياللعجب ! ـ ما اتسّق فلسفياً مع فكرة صلب السيد المسيح التى يؤمن بها العالم المسيحى غرباً وشرقاً.

وتتمحور باقى قصص المجموعة من حول فكرة الموت بدءاً من قصة

«فى يوم بعيد» وانتهاء بقصة « شئ حدث». وهذه القصص ناضجة تماما ، وإن طالب كثيراً ، فهذا شكل استقر عليه القاص ووجد فيه نفسه، بل استطاع من خلاله أن يُحدث التفاته نقدية واستقبالاً شعبياً كبيراً عندما كتب قصة « آلام صغيرة» وحصل من خلالها على الجائزة الأولى - فيما أذكر - من خلال نادى القصة القاهرى (الذى تصدر من خلاله هذه المجموعة)، إضافة إلى الجائزة الأولى أيضاً ولكن فى عام آخر عن قصة « مشوار » ، والجائزتين الثانية والثانية مكرر عن قصتي « شئ حدث» و« أيام فى المنفى ». فمن بداياته وكمال رحيّم وجد ضالته المنشودة فى كتابة القصة الحميمية التلقائية ، وهذا يدعو للعجب حقاً إذا ما تذكّرنا بداياته ، حيث لازمته فكرة الكتابة منذ السبعينات من القرن الماضى، ولكنها لم تجد سبيلاً ، لأنه - لسوء الحظ - تخّرج فى ريعان شبابه من كلية الشرطة وعمل ضابطاً ، فأبعده ذلك سنوات وسنوات عن واحة الأدب ، وإن أفاده بشكل غير مباشر كما اتضّح فيما بعد ، عندما راح يستدعى ذكريات احتكاكه بقاع المجتمع ، وعندما راح يمارس قوة الملاحظة التى نضجت لديه ، بل والاستنتاج والتحليل الدقيقين . ومازاد الطين بلةً أن كمال رحّيم انهمك فى دراسة القانون إلى أن حصل على درجة الدكتوراه ثم عاد وسافر للعمل فى

سلطنة عُمان وهناك كان التحوّل اللذيذ ، وكان وراء ذلك الفراغ الذى عاناه إذ كان لديه متسّع من الوقت ليعود أدراجه بعد حين من الدهر لعالم الأدب وكان ذلك تحديداً فى عام ١٩٩٧ عندما خطّ أولى قصصه - المذكورة آنفاً - وهى قصة «أول الآحزان » . وعندما أتبعها بعدد آخر من القصص التى فازت منها أربع - كما ذكرت - بجوائز ، فشجّعه ذلك على الولوج فى منطقة الرواية ، فأصدر رواية « قلوب منهكة » (٢٠٠٤) التى تعالج حياة اليهود فى مصر من خلال طفل نصفه مسلم ونصفه الآخر يهودى مما يجعله يشعر بمراره الفقد ، ويشعل الصراع فى نفسه تجاه البشر وعقائدهم والرواية بشكلها الحالى ونهايتها توحى بأنها جزء أول لثنائية أو ثلاثية .. ربما !

وعلى ذكر هذا الصبى الذى يتعرض فى مستهل حياته لمثل هذا الصراع النفسى الحاد ، يستوقفنا كمال رحُيِّم ليعيد إلى أذهاننا واحداً من أكبر كتاب القصة القصيرة على الساحة الأمريكية وأعنى به همنجواى الذى كتب مجموعة من القصص تدور أحداثها جميعاً عن صبى احتار النقاد فى وصفه ، وهو الطفل (رنكْ آدمز) الذى يشهد بعينيْ جاحظتين المعاناة والفقر المدقع والمرض والجوع والذل بل الارهاب والقتل والموت رغم نشأته فى أسرة ارستقراطية ، مما يضع أمامه صورة للجانب

الآخر من الحياة الأرضية أي البؤس والشقاء حيث لم يعرف ذلك فى النعيم الذى كان يرفل فى كنفه بين أفراد اسرته . ولا أروع من قصتّى « قتله » و «المعسكر الهندى» دليليّن على ذلك . ففى الأولى يرى الأشرار يقدمون بهدوء شديد على القتل وكأنهم يؤدون واجباً اجتماعياً ، وفى الثانية يرى أباه الطبيب وهو يعالج امرأة بينما يحتضر زوجها ويتضورّ أطفالهما جوعاً . لقد أراد همنجواى أن يأتينا بمشاعر صبي بريئة تجاه مآسى الحياة ، وهو يشتد عوده حتى يتمكنّ من مجابهة الحياة فى مستقبله.

وهذا ما يود ـ فى تقديرى ـ أن يحققه أيضا كمال رحيّم فى مجموعته، حيث يجعل بطله الصغير شاهداً على أحداث مفجعة ، يتخللها الموت ، ليعكس إنطباعاته ، وإن كنت أظن أن ثمة حادثة أو عقدة ما أثرت على القاص نفسه وجعلته يتأمّل الموت دوماً فى هذه المجموعة ، والموت كما نسلّم جميعا هو الحقيقة الوحيدة فى الحياة . فها هو طفل قصة « مشوار » يفقد أمة التى يتألم لمشاهدتها وهى تحتضر بينما يحاول الطبيب إنقاذها . وفى اللحظة التى يحاول أن يوطّد فيها علاقته بخالته عوضاً عن أمه يجيئ الأب ليعمّق مرارة الفقد فى نفسه، عندما يقتلعه من حضن الخالة ! وها هو طفل « فى يوم بعيد » ـ وأظنه

الكاتب نفسه ـ بشدّة صراحته ولكشفه الصادق وتأثيره العميق ، ها هو يعود من مدرسته بعد يوم كئيب ليجد الحزن يلف الدار لوفاة أخيه الذى كان يعشقه . وها هو طفل « لقمة العيش » وهى قصة تصوّر شقاء التعساء الذى يرحلون عن ديارهم ويتحملون ويلات الغربة ويعيشون فى أحلك الظروف فى سبيل كسب لقمة العيش ، هاهو الطفل يحدّث والده مفتوح العينين ولم يدر أنه قد مات بالفعل !

وهكذا يؤكّد كمال رحّيم أنه مشغول بل مهوم بهاجس الموت ، ربما لأنه عاش مرارة مثل تلك التجربة فراح يستدعيها من خلال أطفال قصصه ، ربما لشعورة بفداحة الفقد ، وربما ليعكس أمامنا شريحة من الحياة طالما حاولنا فى سعينا وراء الأحلام والطموحات إغفالها فأراد أن يشهرها أمامنا لتوقظنا لحقيقة فنائنا ، ولكن أغلب الظن أن الكاتب يحاول دوماً خلق آلية ردع ليصدّ عن نفسه كابوس الموت الذى يطارده كمن يشاهد فيلم رعب ليتطهر من مخاوفه ومن مصادر القلق ، وهذا اتجاه نفسي وأدبي فى ذات الوقت ، فقد ألمح ناقد إلى مسألة « قلق التأثير» أى أن الكاتب يظل مطارداً من فكرة أو مشهد أو حتى عبارة ما حتى يستخدمها ويُعيد صقلها حتى يتطّهر من قلق تأثيرها.

ومن هنا أقول أن كمال رحّيم حقق أهدافاً كثيرة من تعّرضه لفكرة

الموت فى مجموعته الأولى « أيام فى المنفى » ، سواء على مستوى الشكل أو المضمون أو حتى على مستوى ارتباط الأديب بعمله . ومن معرفتى الوثيقة به أراه كاتباً ملتزماً ، متفانياً فى خدمة ابداعة ، إذ صار الأدب حياته ، وراح يمارس طقوسه كمن يمارس طقوس العبادة فى محراب ، فينقطع بذلك عن واقعة ويجوس خلال عوالم الفن قبل أن يعود مجدّداً إلى الأرض الواقع . فمرحباً به كاتباً ذا مصداقية وهنيئاً لساحة القص على هذا الكاتب الواعد.

د. جمال عبدالناصر
الجيزة فى سبتمبر ٢٠٠٥

فهرس المحتويات

فى يوم بعيد ٧

لقمة العيش ١٧

فى أول النهار ٣٧

آلام صغيرة ٤٧

مشوار ٦٩

أيام فى المنفى ٨٩

شبراوى ١٠٧

البقية فى حياتك ١٢٣

شئ حدث ١٣٦

أول الأحزان ١٥٩

ما صدر للمؤلف :

فى مجال الأدب صدرت له رواية بعنوان « قلوب منهكة ».

وفى مجال القانون صدرت له المؤلفات الآتية

(١) السلطة فى الفكرين الإسلامى والماركسي .

(٢) القانون الإدارى .

(٣) نظم الحكم .

(٤) الإدارة العامة .

(٥) المدخل إلى العلوم القانونية .

(٦) الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والإتجار غير المشروع فى المواد المخدرة .

•• صدر فى هذه السلسلة

١ـ آلام صغيرة وقصص أخرى ـ(الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة) عام ١٩٩٨ .
٢ـ يوميات عروبة ـ د. هانى الرفاعى.
٣ـ ما رواه البحراوى ـ عبد الرحمن شلش.
٤ـ أبناء نادى القصة ـ محمد محمود عبدالرازق.
٥ـ زوجتى لاتريد أن تتزوجنى ـ فتحى سلامة.
٦ـ الحى الراقى ـ فتحى مصطفى.
٧ـ الياسمين يتفتح ليلا ـ عزت نجم .
٨ـ حدائق السماء ـ محمد سليمان.
٩ـ الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين ـ الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.
١٠ـ دلونى على السبيل ـ محمد الشريف.
١١ـ الجدة حميدة ـ حسن الجوخ.
١٢ـ فستان زفاف قديم ـ على عيد.
١٣ـ بحر الزين ـ حسن نور.
١٤ـ من أوراق العمر ـ محمد كمال محمد.
١٥ـ إحراج ـ نادية كيلانى.
١٦ـ البنات ـ هدى جاد .
١٧ـ عاد الأسد.. أسداً نبيلا ـ عبدالمنعم السلاب.
١٨ـ عراف السيدة الأولى ـ محمد القصبى.
١٩ـ حكايات عن العربيد ـ صلاح عبدالسيد.
٢٠ـ السلمانية ـ صلاح معاطى.
٢١ـ الفائزون أول القرن الحادى والعشرين ـ الفائزون فى مسابقة

القصة القصيرة.
٢٢ـ صبحى الجيار والمحنة المضيئة ـ مصطفى عبد الوهاب.
٢٣ـ الرغبة الوحيدة ـ صوفى عبدالله.
٢٤ـ الغزال فى المصيدة ـ محمود البدوى.
٢٥ـ خراط البنات ـ صفوت عبدالمجيد.
٢٦ـ القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع ـ حسين عيد.
٢٧ـ حوار مع جنية ـ عصام الصاوى.
٢٨ـ ليلة موت ـ عبد الحميد الفداوى.
٢٩ـ حبيب حبيبى ـ درويش الزفتاوى.
٣٠ـ لقاء غير متوقع ـ محمد صفوت.
٣١ـ التوأم وقصص أخرى ـ الفائزون فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة.
٣٢ـ أكثر من عمر ـ عبدالفتاح مرسى.
٣٣ـ من حياة الحياة ـ رستم كيلانى.
٣٤ـ فرحة الأجراس ـ عبدالعال الحمامصى.
٣٥ـ أنا .. ونورا .. وماعت ـ رفقى بدوى.
٣٦ـ الليلة الثانية بعد الألف ـ مختارات من القصة النسائية فى مصر ـ إعداد وتقديم يوسف الشارونى.
٣٧ـ ثلاثية آدم وحواء ـ عماد الدين عيسى.
٣٨ـ الأحلام تتمشى فى الذاكرة ـ محمد الفارس.
٣٩ـ بين الحكى والنقد ـ نبيل عبدالحميد.
٤٠ـ مواسم الشروق ـ أحمد الشيخ.
٤١ـ السقف والناب الأزرق ـ فؤاد قنديل.
٤٢ـ الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة لعام ٢٠٠٢ .

٤٣ـ خمس سنوات رملية ـ سمير درويش.
٤٤ـ القصة والرواية فى السبعينيات ـ د. يسرى العزب.
٤٥ـ الضوء والظلال ـ محمد قطب.
٤٦ـ عين طفل ـ د. مرعى مدكور.
٤٧ـ فنون روائيه ـ محمود عبدالوهاب.
٤٨ـ عطر المشمش ـ أمين بكر.
٤٩ـ أولاد الأفاعى ـ خليل الجيزاوى.
٥٠ـ رواية زوينة ـ محمد جبريل .
٥١ـ التعدد والتباين ـ أحمد عبدالرازق أبو العلا.
٥٢ـ فيل أبيض وحيد ـ د. محمد حسن عبدالله.
٥٣ـ العذاب والصمت ـ لويس يعقوب.
٥٤ـ عواطف دافئة ـ وفية خيرى .
٥٥ ـ احداث منتصف الليل ـ رأفت سليم.
٥٦ ـ ظلال وأشخاص ـ محمد الحديدى.
٥٧ ـ قراءات فى القصة والرواية ـ د. جمال عبدالناصر .
٥٨ ـ الصوت والصدى ـ يوسف جوهر.
٥٩ـ اشلاء بورة العشاق ـ أحمد محمد حميدة.
٦٠ ـ من حكايات البنت المسافرة ـ محمد عبدالحافظ ناصف.
٦١ـ أيام فى المنفى ـ د. كمال رحيم.

الناشر
دار النيل
للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شارع عبده بدران
م الباشا - المنيل
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

الترقيم الدولى
997 - 5414 - 76 8